﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: 1 - 4]

❁ مُناسَبَةُ مطلّع السورة لخاتمة ما قبلها:

القرآنُ الكريم كلُّه سياقٌ واحدٌ وثيقُ الاتِّصال المعنويّ

لمّا خُتِمتْ سورةُ الصَّفِّ بإقبالِ بعضِ أتباع سيِّدنا عيسى على جنابه الأقدس، وتأييدِ الله تعالى لهم على عدوِّهم ممَّن استمرَّ على الزَّيْغِ فأصبحوا ظاهرين - وبذلك ثبَتَ أنَّ للهِ تعالى تمامَ القدرة المستلزمَ للتَّنزُّهِ عن كلِّ شائبةِ نقصٍ - بُدِئَتْ سورة الجمعة بتسبيحِ اللهِ، ناصرِ أهل الحقِّ، خاذِلِ أهل الباطل، مالكِ ما في السَّماوات وما في الأرض، المنزَّهِ بعَدْلِه عن خِذْلانِ المتَّقين، العزيزِ القادر على نُصْرتهم، الحكيم في تصرُّفاته.

❁ شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿يُسَبِّحُ﴾: السَّبْحُ: المَرُّ السَّريع في الماء وفي الهواء. يقال: سَبَحَ سَبْحًا وسِباحةً، واستُعير لِمَرِّ النُّجوم في الفَلَك، نحوُ قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: 40]. والتَّسبيحُ: تنزيهُ الله تعالى. وأصلُه: المَرُّ السَّريعُ في عبادة الله تعالى. وجُعِل ذلك في فِعل الخير، كما جُعِل الإبْعادُ في الشَّرِّ، فقيل: أبعَدَهُ الله.

وجُعِل التَّسبيح عامًّا في العبادات، قولًا كان أم فعلًا أم نيَّةً، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ [الصّافّات: 143]، قيل: من

المُصلّين، والأولى أن يُحمل على ثلاثتِها، قال: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30][1]، فمعنى ﴿يُسَبِّحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: يُنزِّهه في نيَّتِهِ وأقواله وأفعاله، ويمرُّ سريعًا في عبادته.

2) ﴿ٱلْمَلِكِ﴾: (ملك) أصل صحيح يدلُّ على قوةٍ في الشَّيء وصحَّةٍ. يقال: أمْلَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ. ومَلَّكْتُ الشَّيءَ: قَوَّيْتُهُ. مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَمْلِكُهُ مَلْكًا. والاسمُ المِلْك؛ لأنَّ يدَهُ فيه قويَّةٌ صحيحة. فالمِلْكُ: ما مُلِكَ من مالٍ. والمملوك: العبد. والمَلَكُ: الماءُ يكون مع المسافر؛ لأنَّه إذا كان معه مَلَكَ أمرَهُ[2]. فمعنى ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: "الَّذي له مُلْكُ الدُّنيا والآخرةِ وسلطانُهما، النّافذُ أمرُه في السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما"[3].

3) ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾: (قدس) أصلٌ صحيح، يدلُّ على الطُّهر، وهو من الكلام الشَّرعيِّ الإسلاميِّ، ومن ذلك الأرضُ المُقَدَّسَةُ، هي المُطَهَّرَة. وتُسَمَّى الجنَّةُ حظيرةَ القُدُسِ؛ أي: الطُّهْرِ. وجَبْرَئيلُ ﷺ روحُ القُدُس. وكلُّ ذلك معناه واحدٌ. وفي صفةِ الله تعالى: ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾، وهو ذلك المعنى؛ لأنَّه مُنَزَّهٌ عن الأضداد والأنداد، والصّاحبة والولد، تعالى الله عمّا يقولُ الظّالمون عُلوًّا كبيرًا[4].

4) ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: الأمُّ بإزاء الأب، وهي الوالدةُ القريبة الَّتي ولَدَتْهُ، والبعيدةُ الَّتي ولَدَتْ مَن ولَدَتْهُ، ولهذا قيل لِحوّاءَ: هي أُمُّنا، وإنْ كان بيننا وبينها وسائطُ. ويقال لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيءٍ أو تربيته أو إصلاحه أو مَبْدَئِه: أُمٌّ، وكلُّ شيءٍ ضُمَّ إليه سائرُ ما يليه يُسَمَّى أُمًّا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزُّخرف: 4].

والأُمِّيُّ: هو الَّذي لا يَكتبُ ولا يَقرأُ من كتاب، وعليه حُمِل قوله تعالى هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ قال قُطْرُبٌ: الأُمِّيَّةُ: الغفلةُ والجهالة، فالأُمِّيُّ منه، وذلك هو قلَّةُ المعرفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: 78]؛ أي: إلّا أن يتلى عليهم[5].

(1) الراغب، المفردات: (سبح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدس).
(5) الراغب، المفردات: (أم).

ووَرَدَ الأُمِّيُّ في القرآن في وجوه منها: العَرَب، وهم الَّذين لم يكن لهم كتابٌ من قبل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: في العَرَب. ومنها: اليهود الَّذين لا يعلمون معنى التَّوراة، قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78]، وومنها: النَّبيُّ المصطفى ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: 157]، وقيل: هو منسوبٌ إلى الأُمَّة الَّذين لم يَكتبوا؛ لِكونه على عادتهم، كقولك: عامّيٌّ؛ لِكونه على عادة العامَّة. وقيل: سُمّي بذلك لأنَّه لم يكن يكتبُ ولا يقرأُ من كتاب. وذلك فضيلةٌ له ﷺ؛ لِاستغنائه بِحفظه واعتمادِه على ضَمانِ الله له بقوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: 6]. وقيل: سُمّي لِنِسبَتِه إلى أُمِّ القُرَى، والله أعلم[1].

والمقصودُ بـ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾: العربُ الَّذين لا يعرفون القراءةَ ولا الكتابةَ، كأنَّهم يُنسَبون إلى أُمَّهاتِهم.

5) ﴿يَتۡلُواْ﴾: (تلو) أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع. يقال: تَلوْته، إذا تَبِعْتَهُ. ومنه تلاوةُ القرآن؛ لأنه يُتْبِع آيةً بعد آية. ومن الباب التَّليَّةُ والتُّلاوَةُ وهي البَقيَّةُ؛ لأنَّها تتلو ما تقدَّم منها. قال ابنُ مقبلٍ:

يا حُرُّ أمْسَتْ تَليّاتُ الصِّبا ذَهَبَتْ *** فلَسْتُ مِنْها على عَيْنٍ ولا أثَرِ[2]

والتِّلاوةُ تختصُّ باتِّباع كتب الله المنزلة، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتِسام لِما فيها من أمرٍ ونهي وترغيب وترهيب. والتِّلاوةُ أخصُّ من القراءة، فكلُّ تِلاوةٍ قراءَةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً[3]. فمعنى ﴿يَتۡلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يقرأ عليهم آياته تعالى تِباعًا.

6) ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾: زكا يزكو زَكاءً وزُكوًّا: نَما. والزَّكاةُ: النُّموُّ الحاصلُ عن بركة الله تعالى. ويُعتبر ذلك بالأمور الدُّنيويَّة والأخرويَّة، ومنه الزَّكاةُ لِما يُخرِجه الإنسان من حقِّ الله تعالى إلى الفقراء، وتسميتُهُ بذلك لِما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكيةِ النَّفس، أي: تنميتِها بالخيرات والبركات، أو لَهُما جميعًا؛ فإنَّ الخيرَين فيها[4].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في الأم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).
(3) الراغب، المفردات: (تلو).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في الزكاة).

ومعنى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ هنا: "يُطهِّرُهم من أقذارِ العقائد والأخلاق والعادات الَّتي كانت لهم في الجاهليَّة"[1].

7) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحِكْمَةُ: وضْعُ الشَّيْء في مَوْضِعه، وصوابُ الأمر وسدادُه، وأفعال الله تعالى كَذَلِك؛ لأنَّهُ يتَصَرَّفُ بِمُقْتَضى المُلك فيفعلُ ما يَشاء، وافَقَ غَرَض العبادِ أم لا، والحكمةُ: معرفَةُ الحَقائِق على ما هيَ بِقدر الاِسْتِطاعَة، وهي العلمُ النّافع المعبَّرُ عَنهُ بِمَعْرِفَةِ ما لَها وما عليها[2].

والمراد بالحكمة في الآية: العلمُ النّافع المصحوبُ بالعمل الصّالح، وفي وضْعِها إلى جانبِ الكتاب إشارةٌ إلى أنَّ المقصود بها السُّنَّةُ النَّبويَّةُ المُطهَّرة[3]، وسُمّيَتِ السُّنَّةُ حكمةً؛ لأنَّها مستفادةٌ من كتاب الله، ومن النَّظَرِ المُلهِم في آياته وكلماته[4].

8) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: ضَلَّ الشَّيءُ يَضِلُّ ضلالًا؛ أي: ضاعَ وهلَكَ. والاسمُ: الضُّلُّ، بالضَّمِّ. ومنه قولهم: هو ضُلُّ بنُ ضُلٍّ، إذا كانَ لا يُعْرفُ ولا يُعْرَفُ أبوه. والضَّالّةُ: ما ضَلَّ من البهيمة للذَّكر والأنثى، والضَّلالُ والضَّلالَةُ: ضدُّ الرَّشادِ[5]، ومعنى ﴿ضَلَٰلٍ﴾: البُعْدُ الواضحُ عن الحقِّ والحكمةِ[6].

9) ﴿يَلْحَقُواْ﴾: لَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به: أدركتُه. قال تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: 170]، ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ ويقال: ألحقتُ كذا. قال بعضُهم: يقال: ألحَقَهُ بمعنى لَحِقَهُ، وقيل: هو مِن: ألحقتُ به كذا، فنُسب الفعلُ إلى العذاب تعظيمًا له، وكُني عن الدَّعيِّ بالمُلحَق[7]. فمعنى ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ﴾: لمّا يُدرِكوهم، وأنَّهم سيُدرِكونهم إن شاء الله تعالى.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.
(2) أبو البقاء، الكليات: (الحكم).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 376.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.
(5) الجوهري، الصحاح: (ضلل).
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.
(7) الراغب، المفردات: (لحق).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإسلامُ، وتَعَلُّمُ القرآنِ والسُّنَّة هو الفضلُ العظيمُ مِن المَلِكِ العظيم سبحانه

ينزِّهُ اللهَ تعالى ويقدِّسُه جميعُ ما في السَّماوات السَّبْع، وجميعُ ما في جنس الأرض، يسبِّحونه تسبيحًا مُتجدِّدًا لا يتوقَّفُ ولا ينقطع؛ فهو الإلهُ الجديرُ بذلك، الخالقُ المالك، المنزَّهُ عن كلِّ ما لا يليقُ بِمقام الألوهيَّة الحَقَّة، المستجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال والطُّهرِ الواجبةِ للخالقِ، العزيزُ الغالبُ، الحكيمُ في كلِّ تصرُّفٍ يَصدُرُ عنه.

ومِن مَظاهرِ تلك العزّة والحِكمة أنَّه ﷺ هو الَّذي بعث رسولًا أُمِّيًّا - هو محمَّدٌ ﷺ - إلى أُمَّتِه الأُمِّيَّةِ الَّتي هي أُمَّةُ قريش؛ ليقرأ عليهم آياتِ الله تعالى قراءةَ توقيرٍ وإجلال لها، ويُطهِّرَهم مِن أدرانِ الشِّرك وعقائد الجاهليَّة وذميم أخلاقها، ويُعلِّمَهم القرآن الكريم والسُّنَّةَ الشَّريفة، والفقهَ في دينِ الله تعالى، بعدَ أن كانوا قد غَطّوا في جهلٍ مُطبِق، وضلالٍ واضحِ الخطورة على أهله؛ حيث يُبينُ عن نفسه بنفسه.

وكذلك يتلو الرَّسولُ الأمّيُّ آياتِ الله تعالى على قومٍ آخرينَ مِن العرب، ممَّن ليسوا من قريش، وعلى آخرينَ ممَّن ليسوا من العرب أصلًا، فيصيرُ هؤلاءِ وهؤلاءِ بلَحاقهم برَكْبِ المسلمين من أُمَّتِه، وتتوارثُ أجيالهم جميعًا الكتابَ والحكمة والفقه في الدّين، ويكونُ الرَّسولُ ﷺ السَّببَ في تعليمهم الدّينَ والتِّلاوة والكتاب، وكأنَّه بُعِثَ في هؤلاء أيضًا كما بُعِث في قريشٍ الأُمّيّينَ الأوَل.

ومن المقرَّرِ الجليِّ أنَّ ذلك كلَّهُ - بَدْءًا مِن بعثَةِ النَّبيِّ الأُمّيِّ ﷺ في الأُمَّةِ الأُمّيَّة، ومرورًا بتلاوته آياتِ الله تعالى عليهم، وتزكيته إيّاهم من شوائب الشِّرك، وتعليمِه إيّاهم الكتابَ والسُّنَّة، وانتهاءً بفعلِه ذلك في الآخرين الَّذين لم يكونوا لَحِقوا بهم وقتَ نزول الآيات الكريمات - بلا شكٍّ فضلُ الله تعالى، ومِنَحُهُ الَّتي يَهَبُها مَن يشاء من عباده، لا كما يزعُمُ اليهود مِن أنَّهم هم شعبُ الله المختار، وأنَّ الأُمّيّينَ ليسوا أهلًا لِتَلَقّي الوحي والكتاب من الله تعالى.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ في جملةِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ الآية:

مَطالِعُ السّوَرِ الكريمةِ تُنْبِئُ عن مَقاصِدِها

في افتتاح السّورة الكريمة بالتَّسبيح بصيغة الفعل المضارع يَتحقَّقُ الاتِّساقُ بين مطلعِها ومقصِدِها؛ "لأنَّ الغرض الأوَّل من السّورة التَّحريضُ على شهود الجمعة، والنَّهيُ عن الأشغالِ الَّتي تَشغَلُ عن شهودها، وزجرُ فريقٍ من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصًا على الابتياع من عيرٍ ورَدتِ المدينةَ في وقت حضورهم لِصلاة الجمعة"[1].

فافتتاحُ السّورة الكريمة بالإخبار عن حصول التَّسبيح العامِّ من جميع المخلوقات يُنْبِئُ عن مقصود السّورة الكريمة، ويَلفِتُ إلى أنَّ السَّلامة في مواكبةِ عناصرِ الكون في تسبيحها اللّٰهَ تعالى وتنزيهِه وتقديسه، تسبيحًا متجدِّدًا مستمرًّا لا ينقطع؛ فيَجْلو الرّوحَ ويَشحَنُ النَّفسَ، ويَصونُ العقلَ، ويَدعَمُها في رحلة الحياة.

دلالةُ التَّسبيح في جملةِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾:

تسبيحُ المخلوقات أنواعٌ، منها تسبيحُ الخِلقة، والمعرفة، والضَّرورة

معنى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾: "ينقادُ لأمره، ويَتألَّهُه، ويعبُدُه"[2]، و"التَّسبيحُ يَحتملُ ثلاثةَ أوجُهٍ: تسبيحَ الخِلْقَة، أي: دلالةَ جَوْهَرِ الشَّيء وخِلقتِه على وحدانيَّة اللّٰه تعالى، وعلى تَعاليهِ عن الأشباه. وتسبيحَ المعرفة، بأنْ يَجعلَ اللّٰهُ تعالى بِلطفه في كلِّ شيءٍ حقيقةَ المعرفة؛ ليَعْرِفَ اللّٰهَ تعالى ويُنَزِّهَهُ وإنْ كان لا يَبلغُه عقولُنا. وتسبيحَ الضَّرورة والتَّلقين، بأنْ يُجريَ سبحانه التَّسبيحَ على ذلك الجوهرِ من غير أن يكون له حقيقةُ المعرفة، كما في عصا موسى، وذلك تسبيحُ كلِّ شيءٍ، واللّٰه تعالى أعلم"[3].

ومِن بركاتِ التَّسبيح على العباد أنَّه مِن أهمِّ أسباب النَّجاةِ مِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 206.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 862.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 3.

المَهالِك، كما قال تعالى في قصَّة يونسَ عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصّافّات: 143 - 144].

نكتةُ العُدولِ عن الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ في سورة الصَّفِّ إلى المضارع هنا ﴿يُسَبِّحُ﴾:

تَمْجيدُ الخلائقِ وتنزيهُها اللهَ تعالى متجدِّدٌ مستمرٌّ لا يَفتُرُ ولا يَتوقَّف

مِن لافِتِ النَّظم الكريم مغايرتُه في صيغِ أفعال التَّسبيح، ما بينَ الماضي كما في أوَّل سورة الصَّفِّ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الصَّفّ: 1] والمضارعِ كما هنا: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والأمرِ كما في سورة الحِجر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: 98] وسورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: 1]، فتَكامَلَتِ الصِّيَغُ، وتعاضَدَتْ على إثباتِ دوام التَّسبيح والتَّنزيه والتَّقديس للهِ ﷻ في جميعِ الأزمان، كما عمَّتْ جميعَ المخلوقات.

فالتَّعبيرُ بالفعل المضارع هنا يدلُّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ للدَّلالةِ على أنّ هذا التّسبيحَ لا ينقطعُ.

ومن مناسبةِ المضارعة في فعل التَّسبيح في مطلع سورة الجمعة "أنَّ الغرضَ منها التَّنويهُ بِصلاة الجُمعة، والتَّنديدُ على نَفَرٍ قُطِعوا عن صلاتِهم، وخرجوا لتجارةٍ أو لهوٍ، فمُناسِبٌ أنْ يُحكى تسبيحُ أهل السَّماوات والأرض بما فيه دلالةٌ على استمرارِ تسبيحِهم وتجدُّدِه؛ تعريضًا بالَّذين لم يُتِمّوا صلاةَ الجمعة"[1].

معنى اللّام في القيد ﴿لِلَّهِ﴾:

الخلائقُ يَختَصّون اللهَ تعالى بالتَّمجيد والتَّنزيه

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لامُ التَّعديةِ المُؤْذِنة بالاختصاص، فـ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُسبِّحون اللّهَ تعالى وحده، ويسجدون له وحده، فيختصّونه بالتَّسبيح والتَّنزيه، ولا يُسبِّحون سواه، ولا يُقَدِّسون غيرَه ﷻ؛ لِما له عليهم مِن حقِّ الخَلْقِ، والرِّزق، والتَّوفيق، وما إليها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 206.

دلالةُ التَّعبير بالاسم الجليل (الله) مع التَّسبيح:

التَّسبيحُ نَوْعُ عبادةٍ، وربطُ العبادةِ بالعَلَم الدّالِّ على الذّات المقدَّسة (اللّه) أولى، بل أخصُّ؛ فالاسمُ الجليلُ متعلَّقُ العبادة، كما أنَّ وصفَ الرَّبِّ متعلَّقُ التَّربيةِ وفيضِ العطاء.

لـم يَـرِدْ في الـذِّكـر الحكيم التَّسبيحُ مُقترنًا بـوصـفِ الـرَّبِّ كـثيرًا كـما وَرَدَ مُقترنًا بالاسم الجليل

ولم يَرِدْ في الذِّكر الحكيم التَّسبيحُ مُقترنًا بوصفِ (الرَّبِّ) كثيرًا كما وَرَدَ مقترنًا بالاسم الجليل، وإنَّما يجيءُ التَّسبيح مقترنًا باسم الرَّبِّ، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: 1]، وقولِهِ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: 74]، وبضميرِ الرَّبِّ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف: 206].

معنى ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ موصولةٌ بمعنى (الَّذين)، وهي تختصُّ بغيرِ العقلاء، بخلاف (مَن) الخاصَّة بالعقلاء؛ فـ "في ذكر ﴿مَا﴾ تغليبٌ للأكثرِ، وهو ما لا يَعقِلُ"[1]، أي: "يَسجُدُ للّه تعظيمًا وولاءً وتمجيدًا كلُّ الَّذينَ في السَّماوات والَّذينَ في الأرضِ، وإنْ أبى هؤلاء الكافرون والمشركون أن يكونوا في السّاجدين؛ فإنَّهم إنْ ظنّوا أنَّهم يَملِكون مِن أنفُسِهم أن يخرجوا عن هذا المقامِ الَّذي يَنتَظِمُ الوجودَ كلَّهُ في محرابِ التَّسبيحِ بحمد اللّه فهم واهمون؛ لأنَّهم في قبضةِ اللّه، وفي محيطِ سلطانه، وهم بهذا خاضعون للّهِ كَرْهًا وإنْ لم يَخضعوا له طَوْعًا: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرَّعد: 15]"[2].

الـخـلائـقُ - ومِنهم الكفّارُ - يُسبِّحون اللهَ تعالى؛ لأنَّهم في محيطِ مُلكِهِ خاضِعون لسُلطانِه

مَدُّ الموصولِ (ما) يُناسِبُ دلالةَ العموم، وقَصْرُ (مَنْ) يُناسبُ قَصْرَ دلالتِها على العُقَلاء

والموصولُ ﴿مَا﴾ أكثرُ استيعابًا وأرحبُ دلالةً مِن الموصول (مَنْ)، بناءً على أنَّ لِلمَدِّ في ﴿مَا﴾ إيحاءً يَدْعَمُ الاستقصاءَ والإحاطة –

(1) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 129.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 941، بتصرُّفٍ يسير.

والمقامُ هنا مقامُ استقصاءٍ وإحاطة - أمّا (مَنْ) فمَقْصورةُ اللَّفظِ، الَّذي يُناسبُهُ قَصْرُ دلالتِها على صنفِ العقلاء.

نكتةُ تقديمِ القيدِ ﴿لِلَّهِ﴾ في قولِهِ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

التَّسبيحُ خاصٌّ بالله تعالى؛ فلا يُسبِّحُ إلّا هو ﷻ

في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قُدِّمَ القيدُ ﴿لِلَّهِ﴾ على الفاعلِ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهذا التَّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ والقصرَ؛ أي: فلا تسبيحَ إلّا ﴿لِلَّهِ﴾ ﷻ، ولا تنزيهَ ولا إجلالَ إلّا له ﷻ، وكان الشّعراويُّ رحمه الله تعالى يقول: "الجبابرةُ أرغَموا النّاسَ على مدحهم والخضوعِ لهم، لكنْ ما رأينا واحدًا مهما كان مُجرمًا في الدّين يقول لأحد هؤلاء: سبحانك؛ لذلك نقول في تسبيح الله: سبحانك، ولا تُقال إلّا لك، مهما اجترأ الملاحدةُ فإنَّهم لا ينطقونها لغير الله"[1].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

ما مِن شيءٍ إلّا يُسبِّحُ للهِ تعالى

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جارَّةٌ ظرفيَّةٌ؛ والظَّرفيَّةُ هنا مجازيَّةٌ، وهي أعمُّ من الظَّرفيَّةِ الحسّيَّةِ؛ فلا تدلُّ على ما في داخلِ السَّماوات وما في باطن الأرض فقط، بل تدلُّ على ذلك وعلى ما فوقَها وما تحتَها وما في أجوائها، وأنَّ كلَّ ذلك يسبِّحُ للهِ تعالى، وينزِّهُهُ، ويمجِّدُهُ، وعلى الجملةِ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الإشـــارةُ إلى عمـومِ التَّنزيهِ وشمولِهِ

(أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لتعريف الجنس، المُستغرِقِ كلَّ سماءٍ وكلَّ أرضٍ؛ فلا يَمتنعُ مخلوقٌ - كائنًا مَن كان وأينما كان - عن تنزيه الله تعالى وتقديسِه، والإقرارِ له بالخضوع والذُّلِّ، طَوْعًا من المخلوقات المجبولة على التَّسبيح ومِن المؤمنين، وكَرْهًا وإجبارًا من المكلَّفين غيرِ المؤمنين؛ "لأنَّهم في قبضة الله، وفي محيط سلطانه،

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10356.

وهم بهذا خاضعون لله كَرْهًا وإن لم يَخضعوا له طَوْعًا، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرَّعد: 15]"[1]، كما سبَقَ بيانُه.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تقديمُ تسبيحِ ما في السَّماوات أدلُّ على أنَّ أسبابَ التَّنزيهِ فيها أجَلُّ

يُقدِّمُ النَّظمُ الكريم ذِكرَ السَّماوات على ذكر الأرض غالبًا، يَستوي في ذلك ما جاء في مقامِ إقرارِ مِلكيَّةِ الله تعالى لهما ولِما فيهما، وما جاءَ في مقامِ تسبيحِ ما فيهما للهِ ﷻ وتنزيهِه.

وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ السَّماء ومَن فيها وما فيها أشرفُ مِن الأرض ومَن فيها وما فيها، وإشارةٌ إلى أنَّ السَّماء ومَن فيها وما فيها أدلُّ على عظمةِ الخالق العظيم سبحانه، وأدعى لتنزيهه وتسبيحه.

فقُدِّمَ هنا تسبيحُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّه قطعًا أشرفُ وأثمنُ وأغلى وأعجَبُ؛ وتسبيحُهُم اللهَ ﷻ لكونِهم أبصرَ وأعرفَ بأسباب التَّنزيه والتَّسبيح ثَمَّ. والذِّكرُ الحكيمُ هنا بصددِ الإحاطة والاستقصاء يَضُمُّ تسبيحَ ما في الأرض إلى تسبيحِ ما في السَّماوات كنايةً عن عموم العَظَمة، والله تعالى أعلم.

على أنَّه يُقدَّمُ ذِكرُ الأرض نادرًا على ذكر السَّماء؛ مُراعاةً لاعتباراتٍ سياقيَّةٍ ووفاءً بمقتضياتٍ حاليَّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: 5]، فالَّذي اقتضى تقديمَ الأرض هنا احتمالُ توهُّم بعضِ الجَهَلةِ أنَّ الأرضَ أبعدُ عن علم الله تعالى، وأنَّ عدمَ الخفاءِ عليه محصورٌ بالسَّماء؛ بناءً على أنَّ عرش الرَّحمن في السَّماوات العُلا؛ فبدأ النَّظمُ الكريمُ بذِكرِ الأرضِ؛ للدَّلالة على أنَّهما في عدمِ الخَفاءِ عليه ﷻ سواءٌ.

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

ذكَرَ العلماءُ لِجَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أوجُهًا عديدةً،

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 941.

منها: "أنَّ السَّماواتِ أشرفُ من الأرض، والجمعُ أبلغُ في التَّفخيم من الوحيدِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: 9]. وأنَّ أوامرَهُ إلى الأرض تَخترقُ جميعَ السَّماواتِ السَّبع"(1)، ومنها "أنَّها طِباقٌ بعضُها فوقَ بعض، والأرضُ وإنْ كانت سبعًا عند الجمهور فليس بعضُها فوق بعضٍ، بل بعضُها موالٍ لبعضٍ"(2).

فـي الـقـرآن الـكـريـم ألـفـاظٌ مـفـردةٌ لـم يَـرِدْ لـهـا جمعٌ لثِقَلِهِ، وجموعٌ لم يقعْ لها مفردٌ

أو "للانتفاع بجميع أجزاءِ الأولى، باعتبار ما فيها من نورِ كواكبِها وغيره دون الثّانية؛ فإنَّه إنَّما يُنتفَعُ بواحدةٍ مِن آحادِها، وهي ما نُشاهِدُهُ منها"(3)، أو لِـ "أنَّ جمعَ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ثقيلٌ، وهو مخالفٌ للقياس كـ(أرَضينَ)؛ ولذا لمّا أراد اللّه تعالى ذلك قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلاق: 12]، فلم يَجمَعْها، ورُبَّ مفردٍ لم يَقعْ في القرآن جمعُهُ لِثِقَلِهِ وخِفَّةِ المفرد، وجمعٍ لم يَقعْ مفردُه كـ(الألباب)"(4).

بلاغةُ الطِّباقِ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الـدَّلالـةُ عـلى الشُّمول

بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ طباقٌ بديع؛ يَدعَمُ دلالةَ الإحاطةِ والشُّمولِ المُفادَيْنِ من ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وأنَّ كلَّ المخلوقات تُسَبِّحُهُ تعالى.

نكتةُ تكرار (ما) في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

تأكيدُ العموم والإحاطة

في تكرارِ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بعدَ تقدُّمِها في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تأكيدٌ لدلالة العموم، وتقريرٌ للإحاطة والاستقصاء؛ بحيث لا يَسبِقُ إلى الوهمِ احتمالُ التَّجوُّزِ أو التَّوسُّعِ في الحُكم بحصول التَّسبيح والتَّنزيه والإجلال للّه تعالى من جميعِ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/ 92.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 1/ 489.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 429.
(4) الخفاجي، الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/ 261.

مناسبةُ ذكرِ الصِّفات: ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

المفرداتُ القرآنيَّةُ تُسْهِمُ في دَعْمِ الأغراضِ الشَّرعيَّة

فائدةُ الجمعِ بين هذه الصِّفات الأربعِ ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ الحثُّ على الدَّوامِ في تنزيهِ حضرةِ مالكِ المُلك؛ إذ العظيمُ لا ينصرفُ عن مجلسِهِ مَن كان عنده إلّا عندَ انفِضاضِ مجلسه أو إيذانِهِ بانصرافِهم، و﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ يُرغَبُ في حضرته، و﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: يَعتزُّ المُلتَفّون حولَه، فمفارقتُهم حضرتَه تفريطٌ في العِزَّة، وكذلك ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ إذا فارَقَ أحدٌ حضرتَه فاتَهُ في كلِّ آنٍ شيءٌ من الحكمة، كما فاتَ الَّذين انفضّوا إلى العيرِ ما خَطَبَ به النَّبيُّ ﷺ، إذْ تركوه قائمًا في الخُطبة[1].

وإلى ذلك فـ"﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ إشارةٌ إلى إثباتِ ما يكونُ من الصِّفات العالية، و﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ إشارةٌ إلى نفي ما لا يكون منها"[2]، ومَن كان على هذه الأوصافِ كان حَريًّا بالثَّباتِ تسبيحِهِ وتنزيهِهِ وعدمِ مُفارقةِ ذلك.

لطيفةُ ترتيبِ الصِّفاتِ ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

دلالتُها على اختصاصِ التَّنزيهِ المطلقِ بحضرةِ الله ﷻ

في ترتيبِ الصِّفاتِ الأربع: ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ دِقَّةٌ نَظْميَّةٌ تتَّسِقُ مع السّياق أتمَّ اتِّساقٍ؛ إذ قُدِّمَتْ صفةُ ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لمناسبةِ التَّسبيحِ في أوَّل السّورة الكريمة، فإذا كان النّاسُ يُسبِّحون بحمد ملوكهم فالمالكُ ﷻ (يُسبِّحُ له ما في السَّماوات وما في الأرض)، وفرقٌ بينَ المُلوك وبينَ مِلكِ المُلوك ومالكِهم وما يَملكون.

وثنَّى النَّظمُ الكريم بذكرِ صفةِ ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ تنزيهًا لـ ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ سبحانه عن مشابهته الملوكَ في نقصهم، واحتراسًا مِن سبقِ الوَهْم إلى مشابهتِهم إيّاه في كماله.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 207.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 537.

وثلَّثَ النَّظمُ الكريم بذكرِ صفةِ العِزَّة، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ العزَّةَ تاجُ الصِّفاتِ السّابقة؛ فإنَّ مِن الملوك مَن يُقهَرُ، واللّه تعالى ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب الَّذي لا يُقهَر.

ثمّ خُتِمت الصِّفاتُ بذكر صفةِ الحكمة الدّالَّةِ على وضعِهِ تعالى الأمورَ مواضِعَها، كُلَّ أمرٍ في موضعِهِ الأنسبِ عن اقتدارٍ واختيارٍ؛ إذ لا قيمةَ لحكمةٍ عاجزة، ونَفْيًا لِما قد يَسبِقُ إلى الأوهام، مِن عدمِ خُلوِّ المُلك مِن طَيْشِ الملوك، واللّه تعالى أعلم.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ لِتعريف العَهْدِ الذِّهنيِّ، وهي دالَّةٌ على الكمالِ الَّذي لا يكونُ إلّا للّه تعالى، فهو ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ "صاحب المُلْك، المتصرِّف فيه كيف يشاء"[1]، "الَّذي له مُلْك الملوك، أو الَّذي له المُلك في الحقيقة"[2]، "الَّذي له مُلْكُ الدُّنيا والآخرةِ وسلطانُهما، النّافذ أمرُه في السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما"[3].

المَلِكُ الحقيقيُّ مَن له مُلْكُ الدُّنيا والآخرة، وحرّيَّةُ التَّصرُّفِ فيهما بطَلاقة

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ لِتعريفِ العهد الذِّهنيِّ، وهي دالَّةٌ على كمالِ القُدْسيَّةِ الَّتي لا تكون إلّا للّه تعالى، وأنَّه ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ "المعظَّم"[4]، "المنزَّه عن كلِّ وصفٍ يُدْرِكُهُ حِسٌّ، أو يَتَصوَّرُه خيالٌ، أو يَسْبِقُ إليه وهمٌ، أو يَختلِجُ بِهِ ضميرٌ، أو يَقضي بِهِ تفكير"[5].

اللهُ تعالى هو المنزَّهُ عن كلِّ وصفٍ يُدرِكُهُ حِسٌّ، أو يَتَصوَّرُهُ خيالٌ، أو يَسبِقُ إليه وهمٌ

معنى (أل) في ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ لِتعريفِ العهدِ الذِّهنيِّ، وهي دالَّةٌ على كمالِ العِزَّةِ الَّتي لا تكون إلّا للّه تعالى، فهو ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الكامل العِزَّة،

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 941.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 3.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 862.
(5) الغزالي، المقصد الأسنى، ص: 68.

"الشَّديد في انتقامِه من أعدائِهِ"[1]، "الغالب القاهر الَّذي لا يُعجِزُهُ شيء، أو هو ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ مقابل (الذَّليل)، والذَّليلُ يَنتَظِمُ كلَّ فقرٍ وحاجةٍ وضعف؛ فالواجب: أن يَنتَظِمَ العزيزُ - إذا كان ضدًّا ومُقابِلًا - كلَّ شرفٍ ومَكرُمةٍ وغَناءٍ وقوَّة"[2]، الَّذي "جَعَلَ في كلِّ واحدٍ مِن البشر أثرَ الذُّلِّ به والفقرِ إليه"[3].

العِـزَّةُ المطلَقةُ تختصُّ بالله تعالى دون سِواه

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ لِتعريف العهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ المُطلَقِ الحكمةِ، ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ "في تدبيرِه خَلْقَه، وتَصْريفِه إيّاهم فيما هو أعلمُ به من مصالحِهم"[4]، "الَّذي يضعُ الأشياءَ مواضعَها، فاللّٰهُ تعالى حكيمٌ حيث وضعَ الأشياءَ مواضعَها الَّتي جعَلَها اللّٰهُ تعالى مواضعَ لها، أو ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ هو الَّذي لا يَلحَقُهُ الخطأُ في التَّدبير، وهو معنى المُصيبِ أيضًا، واللّٰه أعلم"[5].

اللهُ تعالى هو الحكيمُ الَّذي لا يَلحَقُهُ خطأٌ في التَّدبير

دلالةُ الصّيَغِ في ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

في صَوْغِ ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ على صيغةِ المبالغة (الفَعِل)، و﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ على صيغةِ (الفُعّول)، و﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ على صيغةِ (الفَعيلِ) دلالةٌ على بلوغِهِ في تلك الكمالات مبلغَ التَّمام الَّذي لا يكونُ إلّا له تعالى؛ فهذه صيغُ المبالغة الدّالَّةُ على بلوغِهِ ﷻ في كلٍّ مِن المُلْك والقَداسةِ والعِزَّةِ والحِكمة مبلغَ التَّفرُّدِ، القاضي له تعالى بالوَحْدانيَّة في حقائقِ أسمائه الحُسنى وصفاتِه العُلا، وأنَّ كلَّ مَن اتَّصَفَ بشيءٍ مِنها إنَّما استمدَّهُ مِن عطائِهِ ﷻ.

صفاتُ الجمال والجلال والكمال البالغةُ الذِّروةَ في بابِها إنَّما هي للهِ تعالى

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 4.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 7.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 4.

علَّةُ فَصْلِ جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ عمّا قبلَها:

التَّراكيبُ القرآنيَّةُ وثيقةُ الرَّوابطِ المعنويَّة

فُصِلَتْ جملةُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ عن جُملةِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ؛ لِما بينهما من كمال الاتِّصال المعنويِّ، وعدم حاجتهما إلى واصلٍ لفظيٍّ يَصِلُهما؛ ذلك أنَّ ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هو نفسُه ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، و"هذا التَّسبيح الَّذي تسبِّحُ به السَّماوات والأرض لله ربِّ العالمين وإنْ كان دائمًا لا ينقطع إلّا أنَّه هنا تسبيحٌ خاصٌّ في مواجهةِ هذه النِّعمة العظيمة، الَّتي أنعم الله بها على أهل الأرض، وهي بعثة الرَّسول ﷺ بالهدى ودين الحقِّ"[1].

ويرى صاحبُ التَّحرير والتَّنوير أنَّ الجملة "استئناف بيانيٌّ ناشئٌ عن إجراء الصِّفات المذكورة آنفًا على اسم الجلالة؛ إذ يتساءلُ السّامع عن وجْهِ تَخصيص تلك الصِّفات بالذِّكر مِن بين صفات الله تعالى؛ فكان الحالُ مقتضيًا أنْ يُبيَّنَ شيءٌ عظيم من تعلُّق تلك الصِّفات بأحوال خلقه تعالى؛ إذ بعثَ فيهم رسولًا يُطهِّرُ نفوسَهم، ويزكّيهم ويعلِّمُهم، فصفةُ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ تعلَّقتْ بأنْ يدبِّرَ أمرَ عباده، ويُصلحَ شؤونَهم، وصفةُ ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ تعلَّقت بأنْ يزكّيَ نفوسَهم، وصفةُ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ اقتَضَتْ أنْ يُلحِقَ الأُمّيّين من عباده بمراتبِ أهل العلم، ويُخرِجَهم من ذِلَّة الضَّلال، فينالوا عِزّة العِلم وشرفَه، وصفةُ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ اقتَضَتْ أنْ يُعلِّمَهم الحكمةَ والشَّريعة"[2].

"وهذه الآيةُ هي مصداقُ إجابةِ الله تعالى لخليله إبراهيمَ عليه السلام، حين دعا لأهل مكَّةَ أن يبعث الله تعالى فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة، فبعثَهُ الله ﷺ - وله الحمدُ والمنَّةُ - على حينِ فترةٍ من الرُّسل، وطُموسٍ من السُّبل، وقد اشتدَّت

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 942.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 207.

الحاجة إليه، وقد مقَتَ الله تعالى أهلَ الأرض عربَهم وعجمهم إلّا بقايا من أهل الكتاب - أي: نزرًا يسيرًا - ممَّن تَمَسَّك بِما بَعَثَ الله تعالى به عيسى ابنَ مريم عليه السلام"[1].

لطيفةُ التَّعبير بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

افتتاحُ الجملةِ الفعليَّةِ بضميرِ الفصل يُحيلُها اسميَّةً، فتفيدُ الثَّبات

ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ "كنايةٌ من اسم اللّهِ تعالى"[2]، وداعي "ابتداء الجملة بضمير اسم الجلالة لِتكونَ جملةً اسميَّةً؛ فتفيدَ تقويةَ هذا الحُكم وتأكيدَه؛ أي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مبعوثٌ مِن الله تعالى لا محالةَ"[3].

بلاغةُ القصرِ في جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾:

بعثةُ الأنبياءِ والرُّسل من خصائصِ الله تعالى

القصرُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا﴾ قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ بتعريفِ طرفي الإسناد، يُقرِّرُ نِسبةَ بَعث النَّبيِّ ﷺ إلى الله تعالى وحدَهُ، ويؤكّد أنّ رسالته ﷺ سماويَّةٌ صادقة؛ ممّا يوجب على جميع المكلَّفين الإيمانَ بها، ومتابعةَ الرَّسول ﷺ عليها، وأنَّها الدّينُ المعتمد الخاتم، الَّذي يُلغي ما قبله من شرائعَ.

علَّةُ التَّعبير بالموصولِ ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ﴾:

الموصولُ بإبهامه عُنصرُ تشويقٍ، ويتيح ذكرَ صلةٍ ثريَّةِ التَّفاصيل

التَّعبيرُ بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يُثيرُ الشَّوقَ إلى معرفة تفاصيلِ الصِّلة، الَّتي بها يَتِمُّ الخبرُ، ويُفهَمُ معنى الموصول؛ فهو عنصرُ تشويق، إضافةً إلى أنَّه يُتيح ذكرَ جملةٍ كاملةٍ، هي جملةُ الصِّلة ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ بما تشتملُ عليه من تفاصيلِ التَّركيب، وخصوصيّاتِ النَّظم المحقِّقةِ الثَّراءَ الدَّلاليَّ، مِن مِثل عطاءِ الماضي في ﴿بَعَثَ﴾، وتقديمِ القيد ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، وتنكيرِ ﴿رَسُولًا﴾.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 116.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 207.

دلالةُ التَّعبيرِ بالبعث في قوله: ﴿بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ ولطيفةُ المُضِيِّ فيه:

بعثتُهُ ﷺ أحدَثَتْ ثورةَ تصحيحٍ للعقائدِ والشَّرائعِ والأخلاق

التَّعبيرُ بالبعث في جملةِ الصِّلة ﴿بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا﴾ يُلمِحُ إلى ما أحدثَتْهُ رسالتُهُ ﷺ من تطهيرٍ للعقائدِ والشَّعائرِ من شوائبِ الشِّرك، وتنقيحٍ للأخلاق ممّا عَلِقَ بها من مساوئِ الجاهليَّة.

وصيغةُ الماضي في الفعل ﴿بَعَثَ﴾ تَقطَعُ بتأثيرِ بعثته ﷺ في حياة النّاس، وما حقَّقَتْهُ من بعثٍ للأرواح نحوَ سُلوكِ سبيل الهدى، وما أنجَزَتْهُ من تصويبِ مسارِ الشَّعائرِ والمعتقَداتِ، وإعادتِها إلى استقامتِها على سبيل الحقِّ والرَّشاد.

معنى ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾:

الرَّسولُ ﷺ من أوسطِ قومه نَسَبًا، فنَسَبُهُ مُتغلغِلٌ فيهم كابرًا عن كابر

حرفُ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ يدلُّ على أنَّه ﷺ من أوسطِهم نَسَبًا، وأنَّ نَسَبَهُ متغلغلٌ فيهم كابرًا عن كابر؛ ممّا يقتضي وفْرةَ ثقتِهم فيه، وتصديقِهم إيّاه فيما جاء به.

وتعديةُ الفعلِ ﴿بَعَثَ﴾ بـ﴿فِي﴾ يُضَمِّنُه معنى الفعل (أظْهَرَ)، قال القاسميُّ: "وإيثار البعثة فيهم بمعنى إظهارِها فيهم"[1]، ويُحتمل أن يكون معنى القيدِ ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾: "إليهم"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، ونكتةُ إيثارِ التَّعبيرِ بهذه اللَّفظة:

كانت الأُمّيَّةُ بركةً على قوم خاتمِ المرسلين ﷺ

(أل) في ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ المعروفين بالعرب، الَّذين كان اليهود يَحُطّون من شأنهم، ويزعُمون عدمَ أهليَّتِهم لتلقّي رسالةٍ من السَّماء، فأخزاهم الله تعالى، وكذَّبهم تكذيبًا عمليًّا، بأنِ امتَنَّ على هؤلاءِ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ وبعثَ فيهم رسولًا منهم، فزادَهم شرفًا، وطَوَّقهم عِزًّا، وناطَ بأعناقِهم شرفَ استقبالِ الرِّسالة وحملِها إلى العالمين، فتجاوزوا

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 228.
(2) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 129.

اليهودَ بمراحلَ، وخلَّفوهم خلفَهم بآمادٍ، فكانت تلك الأمّيَّةُ بركةً على قوم خاتمِ المرسلين ﷺ.

و"الأُمّيُّ هو الَّذي لا يُحسِنُ القراءة والكتابة ولم يتعلَّم، ويكونُ على ما سقط من أُمِّه؛ فنُسِبَ إلى حال وِلادته الَّتي سقَطَ من أُمِّه؛ لأنَّ ذلك إنَّما يكون بالتَّعليم دون الحالِ الَّتي يجري فيها المولود.

ثمَّ وجْهُ الحِكمة في جعل النُّبوَّةِ في الأُمّيِّ أنْ يكون ذلك سببَ معرفةِ نبوَّتِه، وعلامةَ رسالته، بحيث يُعلَمُ أنَّه ما اختَرَع ذلك مِن لدُن نفسِه؛ إذ لم يَعرِفِ الكتابةَ والقراءة، ولا اختلفَ إلى أحدٍ ليتعلَّمَ منه، ثمَّ أحوجَ جميعَ الحكماء إلى حِكمته، وجميعَ أهل الكتابِ إلى معرفة كتابه؛ لِحُسْن نَظْمِه وتأليفه؛ ليُعْلَمَ أنَّه إنَّما نالَهُ بالوحي والرِّسالة، واللّٰه أعلم"[1].

و"أوثرَ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ هنا تَوَرُّكًا على اليهود؛ لأنَّهم كانوا يَقصِدون به الغَضَّ من العَرب، ومِن النَّبيِّ ﷺ جهلًا منهم، فيقولون: هو رسولُ الأمّيّين وليس رسولًا إلينا، وكان اليهودُ ينتقصون المسلمين بأنَّهم أمّيّون، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: 75].

فتحدّى اللّٰه تعالى اليهودَ بأنَّه بعث رسولًا إلى الأمّيّين، وبأنَّ الرَّسول أُمّيٌّ، وأعلَمَهم أنَّ ذلك فضلُ اللّٰه تعالى يؤتيه مَن يشاء كما في آخرِ الآية، وأنَّ فضل اللّٰه ليس خاصًّا باليهود ولا بغيرهم، وقد قال تعالى مِن قبلُ لموسى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 5 - 6]"[2].

نكتةُ تخصيص ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ بالذِّكر مع عمومِ رسالةِ الإسلام:

وتخصيصُ الأمّيّين بالذِّكر لا ينفي مَن عَداهم، ولكن المِنَّة عليهم أبلغُ وآكدُ، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزُّخرف: 44]، وهو ذِكر لِغيرهم يُذكَرون به، وكذا قولُه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشُّعراء: 214]، فـ "عَيَّنَتِ الآيةُ الأُمَّةَ الَّتي بُعِث منها، ولم تُعَيِّنِ الأُمَمَ الَّذين أُرسِل إليهم؛ ليُفهَمَ من ذلك أنَّ رسالته مفتوحةٌ لا محدودة، وقد عُلم عمومُ بعثته للعالَم من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 5.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 208.

كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28]"[1].

رسالتُهُ ﷺ عالميَّةٌ، مفتوحةٌ لكلِّ النّاس، لا محدودةٌ بالعرب

وهذا وأمثالُهُ لا يُنافي قولَه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]، وقولَه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19]، وقولَه إخبارًا عن القرآن: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ [هود: 17]، إلى غيرِ ذلك من الآيات الدّالَّة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمَرِهم وأسوَدِهم[2].

"وإنَّما أوتِرَتْ بعثتُهُ صلوات الله عليه في الأمّيّين لأنَّهم أحَدُّ النّاس أذهانًا، وأقواهم جَنانًا، وأصفاهم فِطرةً، وأفصحُهم بيانًا، لم تَفسُدْ فِطرتهم بغَواشي المتحضِّرين، ولا بأفانينِ تلاعُب أولئك المتمدِّنين؛ ولذا انقلبوا إلى النّاس بعد الإسلام بِعِلمٍ عظيم، وحِكمةٍ باهرة، وسياسةٍ عادلة، قادوا بها معظم الأمم، ودوَّخوا بها أعظم الممالك"[3].

نكتةُ تقديمِ القيدِ ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ على المفعول ﴿رَسُولٗا﴾:

فضلُهُ ﷺ - بعدَ فضلِ الله تعالى - على العربِ كما هو على غيرِهم كبيرٌ

وفي تقديم القيد بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ على المفعولِ ﴿رَسُولٗا﴾ دعمٌ لهذا التَّشريف، ولفتٌ إليه، وتنبيهٌ إلى فضل رسول الله ﷺ عليهم؛ إذ كان سببًا في تبويئِهم صدارةَ الأمم، بَيْدَ أنَّهم الآخِرون وجودًا في الدُّنيا.

دلالةُ التَّعبير بالرِّسالة في المفعولِ ﴿رَسُولٗا﴾ بعد ذِكر البعثة، ودلالةُ تنكيره:

سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ رسولٌ نَبيٌّ، ورسالتُهُ مكتمِلةُ العقيدة والشَّريعة

المفعولُ ﴿رَسُولٗا﴾ هنا يَعني خاتمَ الأنبياء وإمامَ المرسلين سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ، "وكان ﷺ أيضًا أُمِّيًّا مثلَ الأمَّةِ الَّتي بُعث فيهم، وكانت البشارةُ به في الكتب قد تقدَّمت بأنَّه النَّبيُّ الأُمِّيُّ، وكونُه بهذه الصِّفة أبعَدَ مِن توهُّم الاستعانةِ على ما أتى به مِن الحكمة

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1411.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 115.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 228.

بالكتابة؛ فكانت حالُه مشاكِلةً لِحال الأمَّةِ الَّذين بُعث فيهم، وذلك أقربُ إلى صِدْقِهِ"[1].

والتَّعبيرُ بالرِّسالة في المفعول ﴿رَسُولًا﴾ بعدَ تقدُّم التَّعبير بفعل البعث في قوله: ﴿بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ يجمعُ للرَّسول ﷺ بين البعثة والرِّسالة، فيكونُ ﷺ رسولًا نبيًّا، وذلك يقرِّرُ استقلالَ رسالته، وكمالَ أركان عقيدتها، وتمامَ بُنيانِ شريعتها ووفائِها بأسباب السَّعادة لِمَن يَعتنِقُها.

معنى (مِن) في القيد ﴿مِّنْهُمْ﴾، ولطيفةُ هذا الوصف:

(مِن) في القيدِ بالصِّفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ تَبعيضيَّةٌ، توحي بأنَّه ﷺ بعضٌ من كلٍّ، وتُصَوِّرُه ﷺ بالجزءِ المُتمِّم لكُلِّه، فبه يكتملُ، ومعه يلتئمُ، وهو ما يقتضي طَمْأنَةَ هؤلاء العربِ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ إلى صدقِهِ في التَّبليغ عن الله تعالى.

مـا مِـن حـيٍّ مِـن الـعـرب إلّا لـلـرَّسـول ﷺ فيهم قَرابَةٌ وقد ولَـدوه، إلّا حيَّ تغلِب

أمّا حِكمةُ بَعْثِه ﷺ رسولًا أُمّيًّا مِنهم فلموافَقَتِه ما تقدَّمتْ بشارةُ الأنبياء به، ولِمشاكلةِ حاله لأحوالهم؛ فيكونُ أقربَ إلى موافَقتهم، ولينتفيَ عنه سوءُ الظَّنِّ في تعلُّمه ما دعا إليه مِن الكُتب الَّتي قرأها، والحِكَم الَّتي تلاها[2].

وكذلك تَلفِتُ (مِن) التَّبعيضيَّةُ في الصِّفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ إلى أنَّهم "يعلمون نسَبَهُ وأحوالَه"[3]، فيزيدُهم ذلك اطمئنانًا، قال العلماء: "ما مِن حيٍّ مِن العربِ إلّا لِرسول الله ﷺ فيهم قَرابَةٌ وقد ولَدوه، إلّا حيَّ تغلِب، فإنَّ الله تعالى طهَّر نبيَّه ﷺ مِنهم؛ لِنصرانيَّتِهم؛ فلم يَجعَلْ لهم عليه ولادةً"[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 538.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 6.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 529.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 92.

نكتةُ تقييدِ ﴿رَسُولًا﴾ بالوصف ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

في تقييدِ ﴿رَسُولًا﴾ بالوصف ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه "ليس من أهل الكتاب، وهذا يعني: أنَّ هؤلاء الأمّيّين هم أهلٌ لِأَنْ تُختارَ منهم رُسُلُ الله تعالى، كما هم أهلٌ لِأَنْ يَتلقَّوا رسالاتِ الله تعالى، وتُنَزَّلَ إليهم كتبُ الله سبحانه"[1].

كـونُـهُ ﷺ مِـن الـعـرب مِـنَّـةٌ تَستَوجِبُ شكرَ الله تعالى

ثمَّ في كونِهِ ﷺ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ "مِنَّةٌ موجَّهةٌ للعرب؛ ليشكروا نعمة الله تعالى على لُطْفه بهم؛ فإنَّ كونَ رسول القوم منهم نعمةٌ زائدة على نعمة الإرشاد والهَدْي، وهذا استجابةٌ لِدعوة إبراهيمَ عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: 129]، فتذكيرُهم بهذه النِّعمة استنزالٌ لطائرِ نفوسِهم وعنادهم.

وفيه تَوَرُّكٌ عليهم؛ إذ أعرضوا عن سماع القرآن؛ فإنَّ كون الرَّسولِ منهم وكتابِهِ بِلُغَتِهم هو أعونُ على تَلَقّي الإرشاد منه؛ إذ يَنطِقُ بلسانِهم، ويَحملُهم على ما يُصلِحُ أخلاقَهم؛ ليكونوا حَمَلَةَ هذا الدّينِ إلى غيرهم"[2].

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

تـعـدُّدُ صفاتِهِ ﷺ يُـؤْذِنُ بتعدُّدِ فَضائلِه

فُصِلَتْ جملةُ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ عمّا قبلها؛ لوقوعِها صفةً ثانيةً للمفعول ﴿رَسُولًا﴾، فهو ﷺ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾، وهو ﷺ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وتوالي الصِّفات يَؤْذِنُ بتعدُّدِ فضائلِهِ ﷺ، وتنوُّعِ بركات الله تعالى فيه على قومِه ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ وعلى غيرهم؛ ممّا يقتضي تلقّيَ الآيات، والإيمانَ بها، والعملَ بمقتضاها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتِّلاوة في الفعل ﴿يَتۡلُواْ﴾، وإشارةُ صوغِهِ مضارعًا:

وجهُ الإعجاز في أُمّيَّةِ الرَّسول أنَّه يقرأُ عليهم وهو أمّـيٌّ، وقـراءةُ أمّيٍّ بِغير تَعلُّمٍ آيةٌ بيِّنة

تلاوةُ الآياتِ في جملةِ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تعني: القراءةَ "المتتابعة المرتَّلة، الّتي يكون بعضُها تِلْوَ بعضٍ"[3]، وذلك يتَّسِقُ مع

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 208.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 376.

عطاء المضارعة في الفعل ﴿يَتۡلُواْ﴾، فهو ﷺ ﴿يَتۡلُواْ﴾ ويُجدِّدُ التِّلاوةَ، ويتابعُها، ولا يألو جهدًا في سبيل استنقاذ قومه ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ من ظلامِ الجهل وضلالِ الكفر إلى أنوار العلم وهداياتِ الإسلام.

منهجُ الدَّعوةِ: تلاوةُ الآيات، ثمَّ تزكيةُ النُّفوس، ثـمَّ تعليمُها الكتابَ والحكمة

وفي هذه التِّلاوة إلماحٌ إلى وجه الإعجازِ في أُمِّيَّته ﷺ؛ إذ "يقرؤها عليهم مع كونه أمّيًّا مثلَهم لم تُعْهَدْ منه قراءة، ولم يُعرَفْ بِتَعَلُّمٍ، وقراءةُ أمّيٍّ بِغير تَعلُّم آيةٌ بيِّنة"[1].

والصِّفةُ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وما بعدها "تُبَيِّن محاملَ رسالته ﷺ إلى العَرَب، ومنهجَ دعوته لهم؛ فهو يَتلو عليهم آياتِ الله تعالى؛ أي: يُسْمِعُهم إيّاها، ويُلْقيها على أسماعهم مشافَهَةً منه، وهو الَّذي يتولّى تبليغَ رسالةِ ربِّه بنفسه"[2].

معنى (على) في القيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

ثقةُ النّاس في أنَّ الدّينَ منزلٌ من السَّماء يُطَمْئِنُهم إليه ويُغريهم بالإيمانِ به

(على) في جملة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ حرفُ جرٍّ معناه الاستعلاءُ، وهو هنا استعلاءٌ مجازيٌّ، وفي تقييدِ التِّلاوة به إيحاءٌ بِسُموِّ المَتْلوِّ من الآيات، وإلماحٌ إلى تنزُّله من عند الله تعالى؛ ممّا يُسَكِّن نفوسَ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ وغيرِهم، ويُطَمْئِنُهم إليه، ويُغريهم بالإيمان به، ويَحْمِلُهم على الظَّفر ببركاته، واحتضانِ تشريعاته، والعملِ على مقتضاها.

نكتةُ تقديمِ القيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾:

بَعْثُ الرَّسولِ في العرب، وتلاوتُه عليهم، وتزكيتُهُ إيّاهم، وتعليمُهُ لهم تشريفٌ إلى تشريف

تقديمُ القيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ في جملة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يتناغمُ مع تقديمِ القيد السّابق ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ في جملةِ ﴿بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا﴾، ويتآزَرُ معه في بيان الاهتمام بهم، وكذلك يَلفِتُهم إلى فضيلةِ اختصاصِهم بهذا الشَّرف؛ حيث إنَّه ﷺ بُعِث فيهم هم، ويَتلو عليهم هم، إضافةً إلى كونه منهم هم، وذلك

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 520.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.

تشريفٌ إلى تشريفٍ إلى تشريف، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزُّخرف: 44].

دلالةُ التَّعبيرِ بالآيات، ولطيفةُ الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، ولطيفةُ جمعِها:

الإضافةُ إلى الله تعالى تبعثُ على الثِّقة في المضافِ والطُّمأنينةِ إليه

الآياتُ المتلوَّةُ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هي آياتُ الذِّكر الحكيم، الَّتي يتلوها ﷺ عليهم، ويُبلِّغُهم إيّاها آيةً تلوَ آية، مبيِّنًا صحيحَ العقيدة، شارحًا صحيحَ الشَّريعة. أو الآياتُ هي: "الحلالُ والحرام وما أشبهه، أو الآياتُ: الحُجَجُ الّتي يُستظهَرُ بها الحقُّ، والله أعلم"[1].

وفي جمعِ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلالةٌ على تَنَوُّعِها، وكثرةِ دلائلِها على صدق بعثته ﷺ، وثراءِ إشاراتها. وفي إضافةِ الآيات إلى ضمير الاسم الجليل في قوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ مَكْمَنُ التَّطمينِ لهؤلاء، ومَبعثُ التَّصديق لِدعوته ﷺ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾:

تلاوةُ آياتِ الله تعالى تُفضي إلى تزكيةِ النَّفس، والتَّخلُّصِ مِن أرجاسِ الكفر

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ عاطفةٌ، تجمعُ له ﷺ بينَ فضيلتي تلاوةِ آيات الله تعالى على قومه ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، وتزكيتِهم وتطهيرِهم من شوائبِ الشِّركِ وأرجاسِ الكفر. والعطفُ هنا من عطف المُسَبَّب على سببه؛ فتزكيتُهم مسبَّبةٌ عن تلاوته عليهم ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ تلاوة تلك الآيات المباركات تُفضي إلى التَّزكيةِ والتَّخلُّصِ من الكفرِ وشوائبه.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل التَّزكية، وإشارةُ صَوغِهِ مضارعًا:

تجديدُ تلاوة آياتِ الله تعالى يُجدِّدُ التَّطهُّرَ من أدرانِ المعاصي وحلولَ البركةِ في التّالي

في التَّعبير بفعل التَّزكية في جملةِ ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ دلالةٌ على أنَّه "يُطهِّرُهم من أقذارِ العقائد والأخلاق والعادات الّتي كانت لهم في

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 6.

الجاهليَّة"[1]، و"يدعوهم إلى اتِّباع ما يَصيرون به أزكياءَ أتقياءَ"[2]، و"يُنَمّي الخيرَ فيهم"[3].

وفي صوغِ فعل التَّزكية مضارعًا في جملةِ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بيانٌ لتجدُّدِ بركاتِ تلك الآيات على أهلِها الَّذين يُجَدِّدون تلاوتَها، ويُجَدِّدون العملَ بمقتضاها.

معنى (الواوِ) في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

(الواوُ) في جملة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عاطفةٌ، تجمعُ له ﷺ إلى ما سبق مِن تلاوةِ الآيات والتَّزكيةِ فضيلةً ثالثةً، هي تعليمُهم الكتابَ والحكمة، وهكذا جَعل الله تعالى في خاتم النَّبيّين ﷺ على البشريَّة عامَّةً وعلى ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ خاصّةً بركةً وخيرًا كثيرًا.

للرَّسولِ ﷺ فضلٌ كبيرٌ على البشرية عامَّةً وعلى قومِهِ خاصّةً

دلالةُ التَّعبير بالتَّعليم في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾:

في التَّعبيرِ بالتَّعليم في جملةِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إشارةٌ إلى جهلهم، وإلى حاجتِهم لهذا التَّعليم، مثلَ حاجة الطِّفل الصَّغير إلى مَن يُعَلِّمُه العلمَ جزئيَّةً بعدَ جزئيَّةٍ، وذلك يُترجِمُ بقوَّةٍ فضلَ رسول الله ﷺ على أمَّته؛ فقد علَّمهم كلَّ شيءٍ في هذه الحياةِ؛ مِن العقائدِ الصّافية، والعبادات المشروعة، والعادات الصَّحيحة، والأخلاق الرَّفيعة، والآداب القويمة، مِن لحظةِ فتحِ الإنسان عينيه صباحًا إلى أنْ يأويَ إلى فراشه ليلًا، فعن حذيفةَ بن اليمان قال: كان النَّبيُّ ﷺ قَمِنًا أن يقول: إذا أخَذَ مضجعَه من اللَّيل وضَعَ يدَه اليُمنى تحت خدِّه الأيمن، ثمَّ يقول: «اللهُمَّ بِاسْمِكَ أحْيا، وبِاسْمِكَ أموتُ»، فإذا استيقظ من اللَّيل قال: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي أحْياني بَعْدَما أماتَني وإلَيْهِ النُّشورُ»[4].

حاجةُ الأممِ إلى تعليمِ الدّين مُلِحَّةٌ، كحاجةِ الأطفالِ إلى تعليمِ مبادئ العلم

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 538.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 306.

(4) ابن حنبل، مسند أحمد، حَديثُ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمانِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: 38/ 323، برقم: (23286)، وقَمِنًا؛ أي: جديرًا.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: يُعلِّمُهم الكتابَ الَّذي أُنزل عليه ﷺ؛ أي: القرآنَ الكريمَ عند أغلب المفسِّرين، الَّذي اختَصَّ اللهُ تعالى به نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ وأمَّتَهُ الإسلاميَّة، كتابًا خالدًا ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: 42].

القرآنُ يتَّسِمُ بكمالِ توجيهاته، وسموِّ تشريعاته، وفصاحةِ بيانه، ونصاعةِ أسلوبه

وتعريفُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بـ(أل) يوحي بكماله، وشموخِه في توجيهاته، وسموِّ تشريعاته، وبفصاحةِ بيانه، ونصاعةِ أسلوبه، وأنَّه سيظلُّ فوقَ كلِّ كتابٍ وفوقَ كلِّ تشريع، وسيخلَّدُ مَصونًا محفوظًا في صدور المؤمنين.

و"قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الخطُّ بالقلم؛ لأنَّ الخطَّ فَشا في العَرَب بالشَّرع لمّا أُمِروا بتقييدِه بالخطِّ"[1]، واللهُ تعالى أعلم.

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ عاطفةٌ، وهي هنا لمُطلَق الجمع، تجمعُ له ﷺ نوعين من تعليم ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، هما: تعليمُهم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وتعليمُهم (الحكمةَ)، وتوحي بأنَّ تعليمَهم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وحده لا يكفي، وأنَّ تعليمَهم (الحكمةَ) وحدَها لا يكفي أيضًا، وأنَّه لا بدَّ للمؤمن من الجمعِ بينهما.

تكاملُ الدّين بالقرآن والسُّنَّةِ، وبهما معًا تكون للأُمَّةِ أُستاذيَّةُ الإنسانيَّة

وفي ذلك ردٌّ جليٌّ على القرآنيّينَ الَّذين يُنكرون السُّنَّةَ، تصديقًا لقوله ﷺ: «يوشِكُ مُتَّكِئٌ على أريكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَديثي فَيَقولُ: بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ كِتابُ اللهِ، فَما وجَدْنا فيهِ مِنْ حَلالٍ أحْلَلْناهُ، ومِنْ حَرامٍ حَرَّمْناهُ، ألا وإنَّ ما حَرَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِثْلُ ما حَرَّمَ اللهُ ﷻ»[2].

وفي هذا دعوةٌ للعَرَب وللمؤمنين أنْ يتعلَّموا الكتابَ والحكمة،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 92.

(2) الطبراني، المعجم الكبير، الحَسَنُ بْنُ جابِرٍ، عَنِ المِقْدامِ بْنِ مَعْدي كَرِبٍ: 20/ 274، برقم: (649).

وذلك بِمُدارَسةِ كتاب الله تعالى؛ فمَن جعل هَمَّه له، ووجَّه عقلَه وقلبه إليه أصابَ العلمَ، وهذا من شأنه أنْ يجعلَ مِن أمَّة الإسلام - لو أنَّهم استجابوا لدعوةِ الله هذه - موطنَ العلم، ومعدِنَ الحكمة، وأن تكونَ لهم أُستاذيَّةُ الإنسانيَّةِ في العلم وفي الحكمة[1].

معنى (أل) في ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

الحكمةُ في أصل وضعِها اللُّغويِّ: العلمُ النّافع المصحوبُ بالعمل الصّالح، وفي وضعها إلى جانب الكتاب إشارةٌ إلى أنَّ المقصود بها السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة؛ إذ بالكتاب وبالسُّنَّةِ يَعرِفُ النّاسُ أصلحَ الأقوالِ والأفعال، وأعدلَ الأحكام وأقومَ الآداب، وأسمى الفضائل[2].

السُّنَّةُ حكمةٌ مستنبَطةٌ من القرآن الكريم؛ فالحكمةُ تُؤخَذُ من كتاب الله تعالى

فـ(أل) في ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّهنيِّ، وفي تعريفِها دلالةٌ على الكمال البشريِّ فيها، كما يدلُّ تعريف ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على الكمال الإلهيِّ فيه؛ فلا كتابَ يُضاهيه كمالًا إلهيًّا، ولا حكمةَ تضاهيها كمالًا بشريًّا، وفي تعريفها على ذلك إيحاءٌ باستغناء الأمَّة بهما عن كلِّ كتابٍ وعن كلِّ حكمة، وأنَّهما ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ المُغْنيان عن غيرِهما من الكُتب والحِكم.

وسُمّيَتِ السُّنَّةُ حكمةً لأنَّها مستفادة من كتاب الله، ومن النَّظر الملهِم في آياته وكلماته، فليس كلُّ ناظر في كتاب الله تعالى قادرًا على أنْ يتلقّى الحكمة عنه، وإنَّما رسولُ الله ﷺ هو الَّذي أخذ الحكمة كلَّها من كتاب الله تعالى بما أراه اللهُ ﷻ[3].

ويتوسَّعُ الماتريديُّ في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، فيذكرُ أنَّه كلامٌ مثنّى؛ وأنَّ الكتابَ والحكمة واحدٌ، أو الحكمةُ هي الفرائض، أو هي السُّنَّة؛ لأنَّه كان يتلو عليهم آياته،

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 376.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.

ويعلِّمُهم سنَّتَهُ؛ إمّا بلطفٍ من الله تعالى وإلهامِه إيّاه أو بالوحي، ومنهم مَن قال: الكتاب: ما يُتلى من الآيات نصًّا، والحكمةُ: ما أودِعَ فيها من المعاني؛ والله أعلم[1].

نكتةُ تقديمِ تعليمِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على تعليمِ (الحكمة):

رُتبةُ القرآنِ الكريم مقدَّمةٌ على رُتبةِ السُّنَّةِ الشَّريفة وإنْ كان الدّينُ يتكاملُ بهما معًا

ولأنَّ السُّنَّةَ حِكمةٌ مستنبَطَةٌ من القرآن الكريم قُدِّمَ ذكرُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عليها؛ إذ هو الأصلُ في الدّين؛ ففي تقديم تعليم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على تعليم (الحكمة) بيانُ تقدُّم رُتبة ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وأنَّ (الحكمة) شارحةٌ له، مفصِّلةٌ لِمُجمَله، مقيِّدةٌ لِمُطْلَقِه، والله تعالى أعلم.

دلالةُ ترتيبِ جُمَلِ الصِّفات الثَّلاث ﴿يَتۡلُواْ﴾، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾:

مبدأُ التَّخْليَةِ قبلَ التَّحْليَةِ منهجٌ قرآنيٌّ أصيل

جاء ترتيبُ جُمَلِ الصِّفات الثَّلاث: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ مُراعيًا مراحلَ مَهامِّ الرَّسول ﷺ في الدَّعوة، فالمرحلةُ الأولى هي مرحلةُ تلاوةِ الآيات عليهم؛ ليسمعوها ويتدبَّروا معانيَها، فيبدأ تأثيرُها في تطهيرِ أنفسهم من أسباب الكفرِ وأدرانِ الشِّرك، وهذه هي المرحلة الثّانية؛ مرحلةُ التَّزكية، ثمَّ تأتي المرحلةُ الثّالثة؛ مرحلةُ تربيةِ العقائدِ الصّحيحة، وبناءِ الشَّرائع المُحْكَمَة.

وباتِّباع هذه المراحلِ يتحقَّقُ المنهجُ الأمثل، منهجُ التَّخْليَة قبل التَّحْليَة؛ فالتَّخليةُ هنا تتحقَّقُ بتطهيرِ النَّفس من الكفر وظُلمته، ثم تأتي التَّحلية ببناء الإيمان الصّافي في النَّفس، ووضعِ التَّشريع الصَّحيح لحياتها.

وذلك ما لامَسَه الشَّيخُ طنطاوي، حيث يذكرُ أنَّ ترتيبَ جُمَل الصِّفات ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ "في أسمى درجاتِ البلاغة والحكمة؛ لأنَّ أوَّل مراحل تبليغِ الرِّسالة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 6، بتصرف.

يكونُ بتلاوة القرآن، ثمَّ ثنّى سبحانه بتزكية النُّفوس مِن الأرجاس، ثمَّ ثلَّث بتعليم الكتاب والحكمة؛ لأنَّهما يكونان بعدَ التَّبليغ والتَّزكية للنُّفوس؛ ولذا قالوا: إنَّ تعليمَ الكتاب غيرُ تلاوته؛ لأنَّ تلاوته معناها قراءتُه قراءةً مرتَّلَةً، أمّا تعليمُه فمعناه: بيانُ أحكامه، وشرحُ ما خَفيَ من ألفاظه وأحكامِه"[1].

وقد فهم أبو السُّعود أنَّ التَّعليم مترتِّبٌ على التِّلاوة، وأنَّ التَّزكية توسَّطت بينهما للطيفةٍ مقصودة، فيقول: "وسَّط بينَهما التَّزكيةَ الَّتي هي عبارةٌ عن تكميل النَّفس بحسب قوَّتِها العَمَليَّة، وتهذيبِها المتفرِّع على تكميلها بحسب القوَّةِ النَّظريَّة، الحاصلِ بالتَّعليم المترتِّب على التِّلاوة؛ للإيذان بأنَّ كُلًّا من الأمور المترتِّبة نعمةٌ جليلة على حيالِها، مُستوجِبةٌ للشُّكر، فلو روعي ترتيبُ الوجود لَتبادَر إلى الفهم كونُ الكلِّ نعمةً واحدةً"[2].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

وردَ متشابهُ هذه الجمل الثَّلاث: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ مجتمعةً في الذِّكر الحكيم في ثلاثةِ مواضعَ:

الأوَّلُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129].

والثّاني في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164].

والثّالثُ هنا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: 2].

وقد اتَّفقتْ آيتا آلِ عمران والجمعةِ على ترتيب تلك الجمل بتوسيطِ جملة ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، بينَما خالفت آيةُ البقرةِ، فأخَّرت جملةَ ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، وهي مِن دعاءِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام حينما رَفعا القواعدَ من البيت، إذ يقولان: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ﴾ [البقرة:

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 377.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 247.

129] الآيةَ، أمّا الآيتان الأُخريان فمِن إخبار الله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: 164]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، ولا شكَّ أنَّ ترتيبَ إخبار الله تعالى قد راعى مبدأ التَّخلية قبل التَّحلية، بتقديم التَّزكية على التَّعليم، أمّا دعوةُ إبراهيمَ وإسماعيل فاجتهادُ نَبيَّيْنِ من البشَر، فاختلَفَ التَّرتيبان، والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

المتشابهُ اللَّفظيُّ في الذِّكر الحكيم آيـةٌ في الـوفـاءِ بحقِّ السّياقات والمقامات

ويعتبرُ الآلوسيُّ – تبعًا لأبي السُّعودِ – أنَّ الأصل تأخيرُ التَّزكية عنهما، فيقول: "التَّعليمُ معطوفٌ على ما قبله، مترتِّب على التِّلاوة، وإنَّما وُسِّطَ بينَهما التَّزكيةُ الَّتي هي عبارةٌ عن تكميلِ النَّفس بحسبِ القوَّةِ العمليَّة، وتهذيبِها المتفرِّع على تكميلِها بحسبِ القوَّة النَّظريَّة، الحاصلِ بالتَّعليم المترتِّب على التِّلاوة؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأمور المترتِّبةِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالِها، مُستوجِبةٌ للشُّكر. ولو روعي ترتيبُ الوجود – كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البقرة: 129] – لتبادَرَ إلى الفهم عَدُّ الجميعِ نعمةً واحدةً"[1]، وقد بيَّنّا أنَّ مبدأ التَّخلية قبل التَّحلية بخلاف ذلك، والله تعالى أعلم.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ أُمِّيَّتِه ﷺ وبينَ تلاوته الآياتِ وتعليمِه الكتابَ والحكمة:

المُـحـسِّـنُ الـبـديـعـيُّ في الـقـرآن الكريم عُنصرٌ أصيلٌ في تحقيقِ المطابقةِ لمقتضى الحال

في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ طباقٌ لافِتٌ بينَ كونِه ﷺ أُمِّيًّا من ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ لا يقرأ ولا يكتب، وبينَ كونه بالبَعث ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾.

وفضيلةُ هذا الطِّباق أنَّه يُبرِزُ وجْهَ الإعجاز في بعْثَته ﷺ؛ إذ تحوَّلَ الأمّيُّ تاليًا آياتِ الله تعالى، ومعلِّمًا ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، ومربّيًا عقولَهم ومُزكّيًا نفوسَهم، قد "أتى أُمَّتَهُ بجميع الفوائد الَّتي أتى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 247، والآلوسي، روح المعاني: 2/ 325.

بها الرُّسُل غيرُ الأمّيّين أُمَمَهم، ولم يَنقُصْ عنهم شيئًا، فتمحَّضَتِ الأمّيَّةُ للكَوْنِ معجزةً حصَلَ مِن صاحبِها أفضلُ ممّا حصَلَ مِن الرُّسُلِ الكاتبين مثلِ موسى"[1].

وبغيابِ هذا الطِّباق يغيبُ وجهُ المعجزة؛ فكان الطِّباقُ هنا ضروريًّا؛ إذ اقتضاه المعنى، وساق نحوَهُ الغرضَ، فجاء وافيًا بحقِّ المقام، لا مجرَّدَ مُحَسِّنٍ بديعيٍّ ككلام البشر.

معنى (الواوِ) في قولِهِ: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ﴾:

نعمةُ الرِّسالةِ المحمَّديةِ أنقَذَتِ العربَ خصوصًا والبشريَّةَ عمومًا من ضلالٍ مُطبِق

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ﴾ واوُ الحال؛ أي: يزكّيهم ويعلِّمهم والحال أنَّهم كانوا في ضلالٍ مبين؛ أي: أنَّه ﷺ استنقَذَهم من الضَّلال وهم موحِلون فيه.

وفي هذه الواوِ دلالةٌ على أنَّ نعمةَ إرسال هذا الرَّسول إليهم ليست قاصرةً على رفعِ النَّقائصِ عنهم، وعلى تحليَتِهم بكمالِ علم آياتِ اللّه، وزكاةِ أنفسهم، وتعليمِهم الكتابَ والحكمة، بل هي أجَلُّ من ذلك؛ إذ كانت منقِذةً لهم مِن ضلالٍ مبينٍ كانوا فيه، وهو ضلالُ الإشراك باللّه[2].

أصلُ (إنْ) ومعناها في قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾:

الحُكمُ على العرب بالضَّلال قبلَ البعثةِ المحمَّديَّةِ مؤكَّدٌ

ذكر أغلبُ المفسِّرين أنَّ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هي "المخفَّفة من الثَّقيلة؛ و(اللّام) دليلٌ عليها"[3]، وأُبطِلَ عملُها بعد تخفيفِها، فدخلت على الجملة الفعلية ﴿كَانُواْ﴾ كما هو غالبُ شأنِها إذا خُفِّفت وأُهمِلت، واللّام في قوله: ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ﴾ هي اللّام الفارقة الَّتي تفيد الفرقَ بين (إن) النّافية و(إن) المخفَّفة من الثَّقيلة، وهي في الأصل اللّام المزحلقة الّتي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 209.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 210.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 530.

تقترن بخبرها المتأخر؛ إذ الأصل: وإنَّهم لفي ضلال مبين[1]. "وقيل: (إنْ) بمعنى (ما)، و(اللّام) في الخبر بمعنى (إلّا)؛ أي: وما كانوا من قبلُ إلّا في ضلالٍ مبينٍ. ومثلُهُ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: 198]؛ أي: وما كنتم من قبله إلّا مِن الضّالّين، وهو مذهب الكوفيّين"[2]. وقيل: (إنْ) تحقيقيَّةٌ بمعنى (قد)؛ أي: وقد كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

وعلى كُلٍّ فالحُكْمُ عليهم قبل البعثة بالضَّلالِ مؤكَّدٌ؛ إذ كلُّ الأوجهِ المذكورة تصبُّ في هذا المعنى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي في جملةِ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾:

في التَّعبير بالكون الماضي في جملةِ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إيحاءٌ بأنَّ هذا الحكمَ مقطوعٌ به في حقِّهم، وأنَّ الضَّلال المبين كان مُتحقِّقًا فيهم قبلَ بعثة النَّبيِّ ﷺ؛ وأنّهم لذلك كانوا في مسيسِ الحاجة إلى بعثته، والاقتباس من أنوار رسالته.

كـان الـضَّـلالُ مـتـغـلـغِـلًا في الـعـربِ وأهـلِ الـكـتـابين قبل البعثة؛ فكانت حاجتُهم إليها أكيدة

على أنّ العرب كانوا قديمًا متمسِّكين بدين إبراهيمَ الخليل عليه السلام، فبدَّلوه وغيَّروه، واستبدلوا بالتَّوحيد شِرْكًا، وباليقين شَكًّا، وكذلك أهلُ الكتابين قد بدَّلوا كتبَهم وحرَّفوها وغيَّروها وأوَّلوها؛ فبعث اللّه تعالى محمَّدًا صلوات اللّه وسلامه عليه بِشَرْعٍ عظيمٍ كاملٍ شاملٍ لجميع الخلق[3].

معنى ﴿مِن﴾ في القيدِ ﴿مِن قَبْلُ﴾:

(مِـن) الـدّاخـلـةُ عـلى (قـبـل) في النَّظم القرآنيِّ مـزيـدةٌ صِناعةً لازمةٌ بلاغةً

﴿مِن﴾ في القيدِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ – أي: "قبلَ بَعثِهِ فيهم"[4] مزيدةٌ على أصلِ التَّركيب صناعةً؛ وزيادتُها حتميَّةٌ؛ لِتأكيدِ الحكم بضلالهم قبلَ بعثتِهِ ﷺ، وتزكيته إيّاهم، وتعليمِه إيّاهم الكتابَ والحكمة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 210.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 264.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 116.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 294.

وهكذا هي ﴿مِن﴾ الدّاخلةُ على ﴿قَبْلُ﴾ في النَّظم القرآنيِّ، مزيدةٌ صِناعةً لازمةٌ بلاغةً، والله تعالى أعلم.

نكتةُ تقديم القيد ﴿مِن قَبْلُ﴾ على القيدِ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾:

في تقديمِ القيدِ بالظَّرف ﴿مِن قَبْلُ﴾ على القيدِ بالجارِّ والمجرور ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مزيدُ تنبيهٍ إلى سوءِ حالهم قبلَ بعثته ﷺ، وأنَّ تتبُّعَ أخبارهم، وتدبُّر حالهم في تلك المرحلة يقودُ حتمًا إلى تبيُّنِ مدى ما لَفَّهم مِن ضلال، وما هاموا فيه مِن فساد وإفساد، وهو ما يعكسُ عظمةَ ما استنقذهم به ﷺ من أسبابِ التَّزكية والتَّعليم من آيات الله تعالى.

آيــاتُ الـقـرآنِ بحُسنِ تلاوتِها وتبيينِ دلالتِها كفيلةٌ باستنقاذِ أهلِ الضَّلال

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

و(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ توكيديَّةٌ؛ تقرِّرُ انغماسَهم في ظلمةِ الضَّلال الرّوحيِّ العَقَديِّ والأخلاقيِّ السُّلوكيِّ، وهو ما يعكسُ عَظمةَ البعثة المحمَّديَّة، ويُجَلّي بركتَها عليهم؛ إذ أنقذتهم منه، وحوَّلتهم إلى ضدِّه مِن الهُدى.

معنى (في)، وبلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

(في) في متعلّق الخبر ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ للظَّرفية المجازيَّة، حيث تُصوِّرُ الضَّلالَ بشيءٍ مُعْتِمٍ مظلمٍ بهيم، وأنَّ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ قد غطّوا فيه غَطًّا، وغابوا فيه، فلا يهتدون للخروج منه سبيلًا، وأنَّ بعثَتَهُ ﷺ رحمةٌ من الله تعالى، تداركَتْهم لِتستنقذَهم منه، وهو ما يوجِبُ عليهم حَمْدَه تعالى، وشُكْرَهُ ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ضَلَٰلٍ﴾، ونكتةُ تنكيره، ووصفِه بـ﴿مُّبِينٍ﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: أنَّهم كانوا في بُعْدٍ واضح عن الحقِّ والحكمة؛ لِجاهليَّتهم

أشـدُّ الـضَّـلالِ السُّجودُ لِصَنمٍ والذَّبحُ له، ووَأْدُ البنتِ حيَّة

الَّتي كانوا فيها[1]، وكانوا في جَوْرٍ عن قصدِ السَّبيلِ، وأَخْذٍ على غيرِ هدًى[2]، وكانوا مشركين عبدةَ الأصنام، ليس عندهم كتابٌ، ولا يعرفون الحكمةَ[3]، فلا ترى ضلالًا أعظمَ من ضلالِهم[4]، وتنكيرُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ يدلُّ على عِظَمِ خطره على مَن لم يَهتَدِ بهُدَى الإسلام.

وليس في الدُّنيا ضلالٌ أشدُّ ظلمةً من السُّجود لِصَنمٍ أو الذَّبحِ له، ومن وأْدِ فِلْذةِ الكبد حيَّةً.

ووَصْفُ الضَّلال بالمبينِ يحتمل أمرين: أنْ يكون ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى "بيِّنٍ لا ريبَ في كونه ضلالًا"[5]، "وهو مِن شدَّةِ ظُهوره كالَّذي ينادي على نفسِهِ بإيضاحِ لَبْسِهِ"[6]. أو أنْ يكونَ ﴿مُّبِينٍ﴾ على معناه الحقيقيِّ؛ "لأنَّه لشدَّتِهِ لا يلتبسُ على أحدٍ بشائبةِ هدًى أو شبهةٍ، فكان حالُهُ مُبينًا كونَهُ ضلالًا"[7]، فـ"كان ضلالًا مبينًا لأنَّه أفحشُ ضلالٍ، وقد قامت على شناعته الدَّلائلُ القاطعة؛ أي: فَأَخْرَجَهم من الضَّلال المبين إلى أفضلِ الهُدى، فهؤلاء هم المسلمون الَّذين نَفَروا إسلامَهم في وقت نزول هذه السّورة"[8].

بلاغةُ المجاز في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

ظُلمةُ الكُفرِ كثيفةٌ؛ تَحجب عن الكافرِ ما يُنيرُ للرّوحِ دُروبَ الهُدى

في كلمة ﴿ضَلَٰلٍ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ وذلك بتشبيهِ الضَّلال الَّذي يَغمُرُ روحَ الكافر بوعاءٍ يَحوي جِسمًا، أو ظرفٍ يَلُفُّ مظروفَه، ويحيطُ به، ويُغَيِّبه داخِلَه، وحُذف ذلك المشبَّهُ به، ودُلَّ عليه بحرف الظَّرفية (في)، وفي تلك الصّورة تخويفٌ للعاقل مِن أنْ تغرقَ روحُه

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 628.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 6.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 530.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/ 108.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآي والسور: 5/ 116.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 160.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 210.

في تلك الظُّلمات، أو تسقطَ في ذلك المستنقع؛ فتحجُبَ عنه أنوارَ الهُدى، والعياذ بالله.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ عاطفةٌ، عطفت (آخرين) على ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، فتُدخِلُ (آخَرين منهم لمّا يلحقوا بهم) في ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، في كون رسول الله ﷺ ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وفي تلاوته ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾، وفي تزكيته وتعليمه إيّاهم ﴿ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى عالميَّةِ الدّين الخاتم؛ أي: "أنَّه تعالى بَعثه في ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ الَّذين على عهده، وفي (آخرين) من الأمّيّين لم يلحقوا بهم بعدُ، وسيَلحَقون بهم، وهم الَّذين بعدَ الصَّحابةِ ﷺ. وقيل: لمّا نزلت قيل: مَن هم يا رسول الله؟ فوضع يدَهُ على سلمانَ ثمَّ قال: «لَوْ كانَ الإيمانُ عِنْدَ الثُّرَيّا لَنالَهُ رِجالٌ - أوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلاءِ»[1]، وقيل: هم الَّذين يأتون مِن بعدِهم إلى يوم القيامة.

سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ رسـولٌ للعالمين، ودينُهُ الإسلاميُّ رسالةٌ عالميَّة

أو (الواوُ) عاطفةٌ "على المفعولِ المنصوب في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾؛ أي: يُعَلِّمُهم ويُعلِّم آخرين؛ لأنَّ التَّعليم إذا تَناسَقَ إلى آخرِ الزَّمان كان كلُّه مستنِدًا إلى أوَّله، فكأنَّه هو الَّذي تولَّى كلَّ ما وُجِد منه"[2].

وفي هذا دليلٌ على "أنَّ الإسلام سيَدخُلُ فيه مَن كان بعيدًا عن موطن الدَّعوة بُعْدَ الثُّريّا، وهذا يعني امتدادَ رقعةِ الإسلام، وامتدادَ سُلطانه في أطراف الدُّنيا، وهذا مِن أنباء الغيب الَّتي أوحاها اللهُ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقد دخلت في الإسلام طوائفُ وجماعاتٌ من جميع الأمم"[3].

وقد ذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ (الواوَ) عاطفةٌ على الضَّمير

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجُمُعَةِ: 6/ 151، برقم: (4897).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 530.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 945.

المجرور في جملة ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ويتلو على آخرين، وإذا كان ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ فقد عُلِم أنَّه مُرسَلٌ إليهم؛ لأنَّ تلاوة الرَّسول ﷺ لا تكون إلّا تلاوةَ تبليغٍ لِما أوحيَ به إليه.

أو يُجْعَلُ (آخرين) مفعولًا معه، و(الواو) للمعيَّة، ويَتَنازَعُه الأفعالُ الثّلاثة، وهي: ﴿يَتْلُواْ﴾، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾. والتَّقدير: يتلو على الأمّيّين آياتِه ويزكّيهم ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة مع آخرين.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ دائرٌ بينَ النَّصب بالعطفِ أو المعيَّةِ، وبينَ الجرِّ بالعطف على محلِّ الضَّميرِ المجرورِ بحرف الجرّ.

وفي ذلك كلِّه دلالةٌ على عالميَّةِ رسالةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ.

وعلى جميعِ الأوجُهِ الإعرابيَّةِ المتقدِّمةِ تكونُ جملةُ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ معترضةً إمّا بين المعطوف والمعطوف عليه، وإمّا بين الضَّمائر والمفعول معه[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَءَاخَرِينَ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ جمعُ آخَر، وهو: المغايرُ في وصفٍ ممّا دلَّ عليه السّياق. ولمّا جُعِلَ (آخرين) هنا مقابِلًا لـ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ كان مرادًا به آخَرون غيرُ الأمّيّين؛ أي: مِن غير العرب المَعْنيّين بِالأمّيّين[2]، ففي التَّعبير بـ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إفساحٌ لدلالة العموم، وتنويعٌ للمشمولين في الدَّعوة المحمَّديَّة؛ فإنَّها تتَّسِعُ لجميع أصحاب المِلَل والنِّحَل، وكلُّ مَن لحِقَ بركْبِ الإيمان صار ﴿مِنْهُمْ﴾، ويدعمُ تلك الإشارةَ تنكيرُ (آخرين)؛ فإنَّه يجعلُهم أكثرَ شمولًا وتنوُّعًا.

الإيمانُ بدينِ اللهِ تعالى يُزكّي صاحبَه، ويَمنَحُه وسامَ الطُّهر، ويُدخِلُه في المسلمين

والمعنى: ويعلمُ آخَرين ويزكّيهم، وهم المسلمون بعد الصَّحابة، أو هم العجم بعدَ العرب؛ فعن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «رأيتُ في منامي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 210.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 211.

غَنَمًا سودًا، تَتبعُها غنمٌ عُفْرٌ»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، تلك العربُ يتبعُها العجم، فقال: «كذلك عبَّرها لي المَلَك»[1]، أو هم الملوكُ أبناء الأعاجم، أو هم الأطفالُ بعد الرِّجال، أو هم النِّساء بعد الرِّجال[2].

وغيرُ العرب "إذا أسلموا صاروا ﴿مِنْهُمْ﴾، والمسلمون كلُّهم يَدٌ واحدةٌ وأُمّة واحدة وإن اختلفت أجناسهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التَّوبة: 71]، ومَن لَم يؤمن بالنَّبيِّ ﷺ فإنَّهم لَيسوا ممّن عَناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ وإن كان مبعوثًا إليهم بالدَّعوة؛ لأنَّه قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، ومَن لم يؤمن فإنَّه ليس مِمَّن زكّاهُ وعلَّمَهُ القرآنَ والسُّنَّةَ"[3].

معنى (مِن) في المتعلّق ﴿مِنْهُمْ﴾:

(مِن) في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ تبعيضيَّةٌ، تُقرِّرُ اندماج كلِّ من يؤمن بالله تعالى وبرسالة خاتم المرسلين ﷺ في أهل الإيمان؛ حيث يقول تعالى: ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وقد عمل الدّينُ الحنيف على تأكيد أُخوَّةِ الإيمان، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]؛ "فالضَّميرُ المجرور بـ(مِن) عائد إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿كَانُوا۟﴾ من قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والمعنى: أنَّ آخرين مِن الضّالين يتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكّيهم ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة. أو (مِن) اتِّصاليَّةٌ، كالَّتي في قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 159]. والمعنى: وآخرين يَتَّصلون بِهم، ويصيرون في جملتهم"[4].

مرجعُ الضَّمير في ﴿مِنْهُمْ﴾:

تعدَّدَتْ تأويلاتُ المفسِّرين لمرجع الضَّمير المجرور في القيد ﴿مِنْهُمْ﴾، بناءً على تعدُّدِ رُؤاهم في تفسير (آخرين) من جملة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، فذهب أغلبُ المفسِّرين إلى أنَّ الضَّمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ و﴿بِهِمْ﴾ راجع إلى الأمّيّين، وهذا يؤيِّدُ أنَّ المراد

(1) الحديث في المستدرك، ونَصُّه: «إِنِّي رَأَيْتُ فِي المَنامِ غَنَمًا سَوْداءَ يَتْبَعُها غَنَمٌ عُفْرٌ، يا أَبا بَكْرٍ اعْبُرْها»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هي العرب تتبعك ثمَّ تتبعها العجم حتّى تغمرها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «هَكَذا عَبَرَها المَلَكُ بِسَحَرَ»، يُنظر: الحاكم، المستدرك على الصَّحيحين، كِتابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيا: 4/ 437، برقم: (8193).

(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 7، بتصرف.

(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 294.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 211، بتصرف يسير.

بـعـثـتُـهُ ﷺ هدايةٌ لكلِّ مَن اعـتـنَـقـهـا مِـن الأمم جميعًا

بـ(آخرين) هم مَن يأتي بعدَ الصَّحابة مِن العرب خاصَّةً إلى يوم القيامة، والرَّسولُ ﷺ مرسلٌ إلى جميع الثَّقَلين، إلّا أنَّ تخصيصَ العرب ها هنا لِقصد الامتنان عليهم، وذلك لا يُنافي عموم الرِّسالة[1].

ومِن المفسِّرين مَن استبعَدَ أن يكون المقصودُ بـ﴿مِنْهُمْ﴾ العربَ؛ أي: أنْ يكونَ المقصودُ عربًا آخرين غيرَ قريش؛ فإنَّ ذلك القولَ - كما يقول ابن عاشور - "ناكَدَهُ ما رَوَى البخاريُّ ومسلم والتِّرمذيُّ عن أبي هريرة قال: كنّا جلوسًا عند النَّبيِّ ﷺ فأُنزِلت عليه سورةُ الجمعة، فتلاها، فلمّا بَلغ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ قال له رجلٌ: مَن هم يا رسول الله؟ فلم يُراجعه حتّى سأل ثلاثًا، وفينا سلمانُ الفارسي، ووضَعَ رسول الله يدَهُ على سلمانَ وقال: «لو كان الإيمان عند الثُّريّا لناله رجالٌ من هؤلاء»"[2].

وهذا - أي: ربطُ توجيهِ معنى ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ بالفُرْس ممثَّلين في سَلمانَ رضي الله عنه - واردٌ موردَ التَّفسير لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾، والَّذي يَلوح أنَّه تفسيرٌ بالجزئيِّ على وجهِ المثال؛ ليفيدَ أنَّ (آخرين) صادقٌ على أُمم كثيرة مِنها أُمَّةُ فارسَ، وأمّا شموله لقبائلِ العرب فهو بالأولى؛ لأنَّهم ممّا شملهم لفظُ الأمّيّين؛ لأنَّه لم يُصرَّح في جواب سؤال السّائل بِلفظٍ يَقتضي انحصارَ المراد بـ(آخرين) في قوم سلمانَ[3].

نكتةُ القيدِ بالوصف ﴿مِنْهُمْ﴾:

من إخبارِ القرآن الكريم بالغيبِ ما تحقَّقَ على وجهِ الدِّقَّةِ والكمال

وصفُ (آخرين) بكونهم ﴿مِنْهُمْ﴾ تقريرٌ لمبدأ أُخوَّةِ الإسلام، السّاميةِ فوقَ كلِّ أنواعِ الأخوّة وروابطِ العَلاقات، وذلك ما تجسَّدَ سريعًا في أحلكِ المواقف، كما قال أبو عزيزٍ وقد أُسِر يومَ بدر: "مَرَّ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 268.
(2) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجُمُعَةِ: 6/ 151، برقم: (4897).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 211.

بي أخي مصعبُ بن عمير ورجلٌ من الأنصار يأسرُني، فقال: شُدَّ يديك به؛ فإنَّ أُمَّه ذاتُ متاع؛ لعلَّها تفديه منك"[1]، زاد في سبل الهدى والرَّشاد: "فقلت: يا أخي هذه وصاتُك بي؟ فقال له مصعبٌ: إنَّه أخي دونك"[2].

و"في الآية معجزة من معجزات النُّبوَّة، وذلك في الإخبار عن غيبٍ وقع، والبشارة بدخول أُمَم غيرِ العرب في الإسلام قد حصل، فقد صارت تلك الأممُ الَّتي أسلمت من العرب؛ لأنَّ بلادهم صارت بلادَ العرب، ولغتُهم لغةَ العرب، وكذلك دينُهم وعاداتهم، حتّى أصبحوا من العرب جنسًا ودينًا ولغة، وحتّى صار لفظ العرب يطلق على كلِّ المسلمين مِن جميع الأجناس؛ لأنَّهم أمَّةٌ واحدة، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: 52]، فصدق اللّه العظيم"[3].

موقعُ جملةِ ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾:

مَـن أسـلَـمَ من غير العرب صار منهم، وتحقَّقت بينهم الأُخوَّة

جملةُ ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ صفةٌ ثانية لـ (آخرين) بعد الصِّفة الأولى ﴿مِنْهُمْ﴾؛ ليظلَّ باب الأخوَّة الإيمانيَّة مفتوحًا لدخول مَن يلحقُ بهم إلى يوم الدّين. أو "موضعُ جملة ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ موضعُ الحال؛ وينشأ عن هذا المعنى إيماءٌ إلى أنَّ الأمم الَّتي تدخلُ في الإسلام بعد المسلمين الأوَّلين يَصيرون مِثلَهم، وينشأ منه أيضًا رمزٌ إلى أنَّهم يتعرَّبون؛ لِفَهْم الدّين والنُّطق بالقرآن، فَكَمْ مِن معانٍ جليلة حَوَتْها هذه الآية سكَتَ عنها أهلُ التَّفسير.

وهذه بشارةٌ غيبيَّةٌ بأنَّ دعوة النَّبيِّءِ ﷺ ستبلغُ أُمَمًا ليسوا من العرب وهم فارسُ، والأرمنُ، والأكرادُ، والبربرُ، والسّودانُ، والرّومُ، والتُّركُ، والتَّتارُ، والمغولُ، والصّينُ، والهنودُ، وغيرُهم، وهذا من

(1) الأنصاري، سيرة ابن هشام: 2/ 209.
(2) الصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: 4/ 66.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 228.

معجزات القرآن من صنف الإخبار بالمغيَّبات، وفي الآية دلالةٌ على عموم رسالة النَّبيِّ ﷺ لجميع الأمم"[1].

معنى ﴿لَمَّا﴾ في جملةِ ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾:

﴿لَمَّا﴾ في جملة ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ نافيةٌ نفيًا مؤقَّتًا، والمعنى: أنَّهم "لم يجيئوا بعدُ، وسيجيئون"[2]؛ فهي مبشِّرةٌ بدخول أعدادٍ هائلة وأصنافٍ متكاثرة من الأُمم في الدّين الجديد، وقد تحقَّقَ ذلك، فدخَلَ العربُ والفرس والرّوم والوثنيّون وغيرُهم كثيرون في دين الله تعالى أفواجًا، ولا زالوا - وسيظلّون - يدخلون إن شاء الله تعالى؛ تحقيقًا لتلك البشارة القرآنيَّة المطويّة في ﴿لَمَّا﴾ هنا؛ ولذلك أوثِرتْ على أختها (لَم)، والله تعالى أعلم.

بينَ يَدَيْ مؤمني آخـرِ الـزَّمـانِ فـرصـةُ إدراكِ المـنـازلِ العالية مِـن الـرِّضـوان والجِنان

ومن لطائفِ استعمال ﴿لَمَّا﴾ دون (لم) على هذا التَّأويلِ استحثاثُ هِمَمِ المؤمنين المتأخِّرين زمانًا لعمل الصّالحات، وذلك بالتَّلويح لهم بإمكان إدراك المنازل العالية كما أدرَكَها الأوَّلون السّابقون، والله تعالى أعلم.

دلالةُ التَّعبيرِ باللَّحاق في جملة ﴿يَلْحَقُواْ﴾، وصوغِهِ مضارعًا:

إيثارُ التَّعبير بمُفردةِ اللَّحاق في الفعل ﴿يَلْحَقُواْ﴾ داعمٌ لتلك الإشارة الكامنة في ﴿لَمَّا﴾ من أنَّهم سيلحقون، وأنَّ هؤلاء الـ(آخرين) على خُطا السّابقين إلى الإسلام قادمون إنْ شاء الله تعالى، وأنَّ تأخُّرَ بعضِهم عن اللَّحاق مجرَّدُ وقتٍ ولِحكمةٍ يعلمها الله تعالى، وأنَّ تأخُّرَ بعضهم الآخر لِتأخُّرِ زمان وجودهم في الدُّنيا.

مِـــن الأُمَـــــم مَـــن ستـظـلُّ تَـلْـحَـق بِـرَكْـبِ الإيمان سعيدةً مستبشرةً بمَن سبقوها إليه

وصوغُ فِعل اللَّحاق في جملة ﴿يَلْحَقُواْ﴾ مضارعًا يتناغمُ مع دلالة اللَّحاق في دعم البشارة بإسلام (آخرين)، واستحضار صورتهم وهم يلحقون نشِطين سعداء مستبشرين بإسلامِ السّابقين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 212.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 631.

لطيفةُ حذفِ متعلّق اللّحاق في جملةِ ﴿يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾:

يَـظـلُّ لـلسّابق إلى الإســـلام فَـضـلُ السَّبق على اللّاحق وإن أُكرِمَ اللّاحقُ

في حذفِ متعلِّق اللّحاق في جملةِ ﴿يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ لطيفةٌ ذكرها المفسِّرون؛ إذ ذكر بعضُهم أنَّ التَّقديرَ على أنَّ هؤلاء الـ(آخرين) ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ "في الفضلِ والسّابقةِ؛ لأنَّ التّابعين لا يدركون شأوَ الصَّحابة"[1]. قال صاحبُ فتحِ البيان في جملةِ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾: "النَّفيُ مستمرٌّ دائمًا؛ لأنّ الصَّحابة لا يَلحقُهم ولا يُساويهم في شأنهم أحدٌ مِن التّابعين، ولا مِمَّن بعدَهم، فالمنفيُّ هنا غيرُ متوقَّع الحصول؛ ولذلك لمّا ورد عليه أنَّ ﴿لَمَّا﴾ تَنفي ما هو متوقَّعُ الحصول، والمنفيُّ هنا ليس كذلك فسَّرَها المَحَلّيُّ بـ(لم) الَّتي منفيُّها أعمُّ مِن أن يكون متوقَّعَ الحصول أوْ لا، فـ﴿لَمَّا﴾ هنا ليست على بابها"[2].

ومع ذلك يبقى في جملة ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ بشائرُ بالمنازل العالية لمَن يلحقون بهم، وفي الحديث الشَّريف يقول رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ ورائِكُمْ أيّامَ الصَّبْرِ، لِلْمُتَمَسِّكِ فيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِما أنْتُمْ عليه أجْرُ خَمْسينَ مِنْكُمْ»، قالوا: يا نبيَّ الله! أو منهم؟ قال: «بَلْ مِنْكُمْ»[3]، والله تعالى أعلم.

معنى (الباء) في القيدِ ﴿بِهِمۡۚ﴾:

مَن لَحِقَ برَكْبِ الـكـرامِ صـارَ منهم

(الباءُ) في القيد ﴿بِهِمۡۚ﴾ تُعطي دلالةَ الملاصقةِ والمصاحبة؛ أي: أنَّ الـ(آخرين منهم) لم ينضمّوا إلى ركبهم ويندمجوا في مجتمع التَّوحيد بعد، لكنَّهم سينضمّون إليه، ويَندمِجون فيه، ويَلتَصِقون به التِصاقًا معنويًّا روحيًّا إن شاء الله تعالى.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ عاطفةٌ على

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 294.
(2) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 131.
(3) المروزي، السُّنَّة، ص: 14، برقم: (32).

بيانُ قـدرةِ الله وحـكـمـتِـهِ في هـدايـةِ الـكـون عـلـى يـدِ سيِّد الخلقِ ﷺ

قوله تعالى في الآيةِ السّابقة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾، فهو الَّذي بعث في الأمّيّين... ، وهو العزيز الحكيم.

أو (الواوُ) حالٌ من ضمير الجلالة فيها، وعلى كِلا الوجهين يكون ما بينهما من جملةِ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ استطرادًا وتكميلًا للأغراضِ الَّتي تجلّت في تحليلِ عناصرِها من التَّبشيرِ بدخول النّاس في دين الله تعالى أفواجًا.

أو (الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ استئنافيَّةٌ، وهو استئنافٌ بيانيٌّ لِما قبله، جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ: كيف استطاع هذا الرَّجلُ الأُمّيُّ أن ينشرَ دينَ الله في الأمّيّين ومَن بعدهم ممَّن لم يلحقوا بهم بعد؟! فجاء الجواب: لأنَّ اللّهَ عزيزٌ حكيمٌ "في تمكينه رجلًا من ذلك الأمرِ العظيم، وتأييدِهِ عليه، واختيارِهِ إيّاه مِن بينِ كافَّةِ البشر"[1].

دلالةُ بناءِ الجملة على تقديمِ الضَّمير (هو):

العِزَّةُ والحِكمةُ المُطْلَقتان للهِ وحدَه لا شريكَ له

بناءُ الجملة على تقديم الضَّمير ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يُهيِّئُ لأسلوب القصر، فيَقصُرُ العزَّةَ والحكمةَ المطلقتين على الله ﷻ دون سواه، فلا عزيزَ بالمعنى الحقيقيِّ لهذا الوصف إلّا هو ﷻ، ولا حكيمَ بالمعنى الدَّقيق لهذا الوصف إلّا هو ﷻ، وكلُّ عزّة وكلُّ حكمة تَحَلَّى بهما أو بواحدةٍ منهما عزيزٌ أو حكيمٌ سِواه ﷻ فإنَّما هو تكرُّمٌ من الله تعالى، ثمَّ يَنتزِعُهما منهم متى شاء؛ ليبقى هو كما كان ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتفرِّد فيهما، المنفرد بهما.

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بالاسمَينِ الجليلَين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

في تذييلِ الآية الكريمة بالصِّفتَينِ الحُسنيَيْن: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يتحقَّقُ الاتِّساقُ الدَّقيق مع بقاء بَقيَّةٍ ﴿مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾؛ ليتوالى

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 480.

لَحاقُهم بهم، وبذلك يظلُّ الدّينُ الحنيف لائحًا ببهائه، وروعةِ تشاريعه، وصفاء عقيدته، جاذبًا لأصحاب النُّفوس القابلة للخير والهدى إلى يوم القيامة، ويظلُّ عطاءُ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ معجزةً على الدَّوام.

سيظلُّ إقبالُ النّاس على اعتناق الإسلام دليلًا على عزَّة الله تعالى وحكمتِه

فقولُهُ سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ "تذييلٌ للتَّعجيب من هذا التَّقدير الإلهيِّ لانتشار هذا الدّين في جميع الأمم"[1]، وتقريرٌ لكونه سبحانه "بليغ العزَّة والحكمة في تمكينه رجلًا أُمّيًّا من ذلك الأمر العظيم، وتأييده عليه، واختياره إيّاه من بين كافَّة البشر"[2].

ومِن عِزَّته وحكمته تعالى كذلك أنَّه لَم يَترك عباده هَمَلًا ولا سُدًى، بل ابتعث فيهم الرُّسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الَّذي يؤتيه مَن يشاء من عباده، وهو أفضل مِن نعمته عليهم بِعافية البَدَن وسَعَة الرِّزق وغيرِ ذلك من النِّعم الدُّنيويَّة، فلا أعظمَ مِن نِعمة الدّين الَّتي هي مادَّةُ الفوز والسَّعادة الأبديَّة"[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ "إشارةٌ إلى سلطان الله الغالب، وأنَّه سينصر هذا الدّينَ، ويُعِزُّهُ باجتماع النّاس إليه من جميع الأمم والأجناس، وأنَّ ذلك إنَّما يكون عن حِكمة الحكيم العليم، فيَدخلُ في هذا الدّين مَن شاء له الهدى والنَّجاةَ"[4].

نكتةُ تكرارِ الاسمين الجليلين: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

وفي تكرار الاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ هنا بعدَ تقدُّم ذكرهما في الآية الأولى ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ تأكيدٌ لطلاقةِ العزَّة وكمال الحكمة الإلهيَّتَين في نفس الملتقى، وتأكيدٌ على أنَّ إرادته تعالى نافذةٌ لا يُعيقها شيء، وأنَّ حكمته تعالى مطلقةٌ لا يخطِئُها صواب.

إرادتُـهُ تعالى نافذةٌ لا يُعيقُها شيء، وحكمتُه تعالى مُطلَقةٌ لا يُخطِئُها صواب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 212.
(2) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 132.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 862.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 945.

لطيفةُ ترتيب ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

العـزَّةُ المطلقة لازمـةٌ لِما سواها مـن الـصِّـفـات العُلا

النَّظمُ الكريم يقدِّمُ صفةَ العزَّةِ دائمًا على صفة الحكمة، بل على الصِّفاتِ المُقترنةِ بها كلِّها ما عدا صفةَ القوَّة، كما في قوله تعالى هنا: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس: 38]، وقولِه تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الرّوم: 5]، وقولِه تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩﴾ [ص: 9]، وقولِه تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: 1].

وفي اطِّراد تقديم صفة العزَّة إيذانٌ بأنَّ العزّة المطلقة لازمةٌ لِما سواها من الصِّفات العُلا؛ فلا حكمةَ مطلقةً بدون عزَّةٍ مطلقة، والحكيمُ العاجز لا قيمةَ لحكمته مع عجزه. فالله تعالى هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ "في تمكينه رجلًا أُمِّيًّا مِن ذلك الأمر العظيم، وتأييده عليه، واختياره إيّاه مِن بين كافَّة البشر"[1].

ولم تُقدَّمْ في الذِّكر الحكيم صفةٌ على صفةِ العزَّة إلّا صفةُ القوَّة؛ لأنَّ القوَّة لازمةٌ للعزَّة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود: 66]، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشّورى: 19]، والله تعالى أعلم.

لطيفةُ صَوْغِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على (فَعيل):

المبالغةُ دالَّةٌ على التَّمامِ والكمال

وفي صَوغِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على صيغة (فَعيل) دلالةٌ على بُلوغِهما بالنِّسبة لله تعالى مبلغَ التَّمام والكمال، وأنَّه تعالى "بليغُ العزَّةِ والحكمة"[2]، اللَّتَين يَقْصُر عن بلوغِ مرتبة كمالهما فيه سبحانه كلُّ مَن سواه؛ وذلك محقَّقٌ في تكذيبه اليهودَ؛ إذ زعموا أنَّه تعالى لا يبعثُ الرُّسلَ إلّا فيهم ومنهم، وأنَّهم شعبُ الله المختار.

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 480.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 268.

عِلَّةُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبله:

السّياقُ القرآنيُّ متَّصلٌ، وتراكيبُهُ وثيقةُ التَّرابُط

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبله للقَطْعِ والاستئناف؛ تفخيمًا لشأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشارِ إليه مِن بعثه ﷺ ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾؛ أي: "إليهم"[1]، وأنَّه ﴿مِّنۡهُمۡ﴾، وأنَّه ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، وأنَّ ثَمَّ (آخرين منهم لمّا يَلحقوا بهم)، فكلُّ ذلك فضلٌ مِن الله تعالى، وأيُّ فضلٍ في هذه الدُّنيا أكبرُ مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾؟!.

مرجعُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولطيفةُ البُعدِ فيها:

البعثةُ المحمَّديَّةُ خيرٌ وبركةٌ على الأُمَـمِ كلِّها، وفضلُ الله تعالى بها عَميم

أجمعُ مَراجعِ الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ ما جاء في قول ابن عاشور: "الإشارةُ إلى جميع المذكور؛ مِن إرسال محمَّدٍ ﷺ بالآيات، والتَّزكية، وتعليم الكتاب والحكمة، والإنقاذ من الضَّلال، ومِن إفاضة هذه الكمالات على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الَّذين لم تكن لهم سابقةُ عِلمٍ ولا كتاب، ومِن لِحاق أممٍ (آخرين) في هذا الخبر؛ فزالَ اختصاصُ اليهود بالكتاب والشَّريعة، وهذا أجدعُ لِأنفهم؛ إذ حالوا أنْ يجيءَ رسولٌ أُمِّيٌّ بِشريعةٍ إلى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، فضلًا عن أنْ نَلتَحِقَ بأُمِّيَّةِ أممٍ عظيمةٍ كانوا أمكَنَ في المعارف والسُّلطان.

وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾ [آل عمران: 73] يختصُّ به. وهذا تمهيدٌ ومقدِّمةٌ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ الآيات"[2].

وذكَرَ غيرُه من المفسِّرين مرجعًا آخرَ للضَّمير، وفسَّر ما بعده تفسيرًا يتلاءم معه، حيث ذكر أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ؛ من

(1) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 129.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 213.

كونِهِ ﷺ رسولًا في الأمّيّين مزكّيًا ومعلّمًا لهم، ولا يشاءُ سبحانه إيتاءَ هذا الفضلِ لأحدٍ بعدَهُ ﷺ[1].

وفي (لام) البعد في اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ تنويهٌ بتلك الفضائل الَّتي تفضَّلَ اللّهُ تعالى بها على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ العرب، الَّذين بعث فيهم ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ فكلُّ واحدةٍ منها على انفرادها نعمةٌ جليلة، وفضلٌ كبيرٌ يَستوجب الإيمانَ بها والشُّكرَ عليها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾، ولطيفةُ الإضافة فيه:

﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ أي: إحسانُهُ وعطاؤُه[2]، وفي التَّعبير بـ﴿فَضۡلُ ٱللَّـهِ﴾ دلالةٌ على كونه محضَ تفضُّلٍ منه ﷻ على هذه الأمَّة خاصَّةً وعلى النّاس كلِّهم عامَّة.

وفي إضافة ﴿فَضۡلُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ إضفاءٌ لمعاني التَّشريفِ والمباركة على ذلك الـ﴿فَضۡلُ﴾؛ إذ إنَّ شرف المضاف مِن شرف المضاف إليه.

دلالةُ تعريفِ طرفي الإسنادِ في جملةِ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾:

وفي تعريف طرفَي الإسناد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ قَصرٌ للمسند إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ على المسند ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس ذلك الَّذي تقدَّم ذِكرُهُ إلّا فضلَ الله تعالى وحده، وليس لأحدٍ غيرِه سبحانه فيه فضلٌ، وهو ما يوجبُ اختصاصَه تعالى بالشُّكر عليه، وعدمِ إشراكِ غيرِه فيه.

المُتفضِّلُ بالإسلام ﷻ جديرٌ بإخلاصِ الشُّكر له

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ عن جملةِ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ لوَثاقةِ الرَّوابطِ المعنويَّةِ الذّاتيَّة بينَهُما، وعدمِ احتياجِهما إلى واصلٍ لفظيٍّ؛ حيث إنَّ الثّانيةَ مرتبطةٌ بالأولى ارتباطًا وثيقًا؛ لكونها حالًا

اللهُ تعالى يؤتي فضلَهُ مَن يشاءُ تفضُّلًا، لا عن استحقاق

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 290.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.

منها، والحالُ مرتبطٌ بصاحبه، والمعنى: ذلك فضلُ اللّه مُعطًى لِمَن يشاءُ اللّهُ التَّفضُّلَ عليه، لا عن استحقاقٍ من المتفضَّلِ عليه.

دلالةُ التَّعبير بالإيتاءِ في الفعل ﴿يُؤۡتِيهِ﴾، وإشارةُ صوغِهِ مضارعًا:

فـضـلُ الـلـه تعالى بالإسلام عـلـى الـعـبـاد متجدِّدٌ مستمرٌّ لا ينقطعُ، ولا يُكلِّفُهم شيئًا

في التَّعبير بالإيتاءِ في الفعل ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ من جملةِ ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ دلالةٌ على يُسر إيتاء الفضل على اللّه تعالى؛ إذ لا شيءَ على اللّه تعالى عسيرٌ، ودلالةٌ على تيسيرِ فضل اللّه تعالى إلى العبادِ المتفضَّلِ عليهم؛ فلم يتكلَّفوا شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف: 104].

وفي صوغ فعلِ الإيتاءِ مضارعًا ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ امتنانٌ بتجَدُّدِ بركات ﴿ذَٰلِكَ﴾ البعث والتَّزكية، وتعليم الكتاب والحكمة على المؤمنين، تجدُّدًا مستمرًّا؛ لأنَّ الفضلَ بيدِ اللّه تعالى، وخزائنُهُ سبحانه لا يُغيضُها عطاءُ اللَّيل والنَّهار.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في قوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾:

الـلـهُ تـعـالى عَـلِـمَ مَـن هو أهـلٌ للإسلام، فـأودَعَـهُ إيّـاه وجعَلَهُ عندَه

التَّعبير بالموصول في جملة ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ يَمْتازُ عن التَّعبيرِ بالاسم الصَّريح في إتاحتِهِ ذكرَ جملةِ الصِّلة ﴿يَشَآءُۚ﴾، بما فيها مِن إشاراتٍ دلاليَّة مقصودة، إضافةً إلى أنَّ الموصول عُنصُرُ إيجازٍ؛ في كونه عامًّا يتناولُ ما لا يُحصى عددًا مِن أولئك الَّذين يشاءُ اللّه تعالى إيتاءَهم فضلَه ذلك؛ فضلَ الإيمان، والإسلام، والتَّزكية، والتَّعليم.

وكذلك في التَّعبيرِ بالموصول وصلتِهِ في قوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ إلماحٌ إلى أنَّ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ "لا يستحقُّ الذمَّ ممَّن حرَمَهُ اللّهُ تعالى إيّاه؛ لأنَّه لَم يَمنعْهُ حقًّا كان له قبلَه، ولا ظَلَمَهُ في صَرْفِهِ عنه إلى غيره، ولكنَّه عَلِمَ مَن هو له أهلٌ فأودَعَهُ إيّاه، وجعَلَهُ عندَه"[1].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 632.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمشيئةِ، ولطيفةُ صَوْغِها بصيغةِ المضارع:

المشيئةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ هي إرادتُهُ تعالى المتعلِّقةُ بتنفيذِ الإيتاء، فـ"ما أرادَهُ يجبُ وقوعُه"[1]. ويدلُّ تعلُّقُ إيتاءِ الفضل وتوقُّفُه على المشيئة الإلهيَّة على أنَّ النّاسَ لا يُؤْتَونَ فضلَ الله تعالى المقصودَ هنا - أي: الإسلامَ والتَّطَهُّرَ من الكفر، وتعلُّمَ الكتاب والحكمة - مِن دون مشيئته ﷻ، وإن اتَّخذوا في سبيل ذلك كلَّ الأسباب؛ فلا سبيلَ لهم إليه إلّا بأنْ يتطلَّعوا إلى معونته وتوفيقه ﷻ.

اللهُ تعالى يولي عبادَه المسلمين أسبابَ الفضل، ويُجدِّدُ عليهم أمدادَ الخير

والمضارعةُ في فعل المشيئةِ في جملة ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ تدلُّ على تتابُع رحمات الله تعالى، وتنوُّعِ أفضاله على مَن يتفضَّلُ عليهم بالتَّوفيق إلى الإسلام، والتَّزكية، وتعليم الكتاب والحكمة؛ حيث يفيدُ المضارعُ ﴿يَشَآءُۚ﴾ تَجدُّدَ العطاءاتِ تجدُّدًا لا يَخفتُ ولا ينقطعُ.

معنى (الواوِ) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ واوُ الحالِ اللّازمةِ غيرِ المنتقلةِ؛ فالحالُ أنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يؤتيَ فضله مَن يشاء، وهو سبحانه دائمُ الاتِّصافِ بالفضل العظيم، وهو ما يُشجِّعُ المتلقّيَ على الإقبال على الإيمان؛ لاغتنام فضل الله تعالى، والظَّفَرِ بفضل ذي الفضل العظيم.

اللـهُ سبحانه دائـمُ الاتِّـصافِ بـالـفـضـل العظيم

دلالةُ تعريفِ طرفي الإسنادِ في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾:

تعريفُ طرفي الإسناد في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ يُعطي دلالةَ القصر، وأنَّه لا أحدَ غيرُهُ سبحانه ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ كلَّ ذي فضلٍ غيرَ الله تعالى محدودُ الفضل، أمّا ﴿ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فيختصُّ به ﷻ، ولا يشاركُه فيه سِواه.

اللهُ تعالى وحدَهُ صاحبُ الفضلِ العظيم

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/ 233.

دلالةُ الإضافةِ في الخبرِ ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾:

وفي إضافةِ ﴿ذُو﴾ إلى ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ تقريرٌ لذلك الخبر، وتأكيدٌ لكونه تعالى صاحبَهُ غيرَ مشارَكٍ، "الَّذي يَسَعُ فضلُهُ النّاسَ جميعًا، وأنَّه إذا أصاب فضلُهُ قومًا فليس بالمحجوز عن غيرِهم"(1)، وليس كما زعَمَ اليهودُ أنَّهم "يمتازون على النّاس بأنَّهم هم الَّذين خاطَبَتْهم السَّماءُ، وبُعِثَتْ فيهم الرُّسلُ، وأُنزِلتْ عليهم الكتبُ، أمّا غيرُهم من سائر الأمم فلم يكونوا أهلًا لِأنْ يُخاطَبوا من الله تعالى، وأن يَتَلقَّوا رسالاتِهِ، وبهذا صحَّ في زَعْمِهم أنْ يَدَّعوا هذه الدَّعوةَ الضّالَّةَ، وهي أنَّهم شعبُ الله المختار"(2).

اللهُ يَسَعُ فضلُهُ النّاسَ جميعًا، فإذا أصابَ قومًا فليس بمحجوزٍ عن غيرِهم

معنى (أل) في ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾:

و(أل) في ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ لتعريفِ الجنس الاستغراقيِّ، الجامعِ لصورِ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ وأنواعِهِ جميعًا؛ أي: هو سبحانه "ذو المنِّ العظيمِ على خلقه ببعثه محمَّدًا ﷺ"(3).

نكتةُ وصفِ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾:

﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ هو الدّائمُ الباقي(4)، وهو الَّذي لا يُساويه فضلٌ ولا يُدانيه(5)، وهو الَّذي يُحقَرُ دونَهُ كلُّ عطاء من غيره(6)؛ ففي وصفِ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ احتراسٌ مِن نسبةِ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ غيرِ العظيم إلى الله تعالى؛ وإيحاءٌ بأنَّ الفضل الجدير بنسبته إلى الله تعالى هو ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، وأنَّ كلَّ فضلٍ مِن الله تعالى عظيمٌ في بركاته، ونوعه، وقدره مهما بدا ضئيلًا.

كـلُّ فضلِ الله تعالى عظيمٌ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 945.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 942.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 294.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 8.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 268.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 54.

دلالةُ صَوْغِ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ على (فَعيلٍ):

الفضلُ العظيمُ يتعلَّقُ بالآخرة، والفضلُ المبينُ يتعلَّقُ بالدُّنيا

وفي صَوْغِ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ على (فَعيلٍ) مبالغةٌ لفظيَّةٌ، مُبينةٌ ومترجِمةٌ عن عظمةِ فضل الله تعالى، وبإنعامِ النَّظر في أعداد مَن شاء الله تعالى إيتاءَهم فضلَهُ من الإيمان والتَّزكية والتَّعليم يتجلَّى بعضُ عظمةِ فضله ﷻ.

ولن يُطيقَ وصفٌ - مادَّةً وصيغةً فيما يتعلَّق بتفضُّلِ الله تعالى بالدّين - ما يُطيقُه وصفُ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾؛ مِن ترجمةِ ما يمكنُ ترجمتُهُ مِن فضل الله تعالى على العباد، وكثرتِهِ وتنوُّعِهِ على امتدادِ التّاريخِ وتَرامي البلاد.

أمّا ما يتعلَّقُ بالدُّنيا فقد جاء وصفُ ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ [النمل: 16] بـ﴿ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]، وذلك في قوله تعالى على لسانِ سليمانَ عليه السلام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النَّمل: 16]، والله تعالى أعلم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّسبيح والتَّقديس:

كلاهما تنزيهٌ، إلّا أنَّ التَّسبيحَ يختصُّ بالله تعالى، فالتَّقديسُ أعمُّ

التَّسبيحُ والتَّقديسُ يَرجعان إلى معنًى واحدٍ، وهو تَبْعيدُ الله تعالى عن السّوء، والتَّقديسُ أعمُّ مِن التَّسبيح؛ إذ لا يَختصُّ التَّقديسُ به سبحانه، بل يُستعمَلُ في حقِّ الآدميّين، فيقال: فلانٌ رجلٌ مقدَّسٌ، إذا أُريدَ تَبعيدُهُ عن مُسْقِطات العدالة، ولا يقال: رجلٌ مسبَّحٌ، بل ربَّما يُستعمل في غير ذَوي العقول أيضًا، فيقال: قدَّس الله روحَ فلان، ولا يقال: سبَّحَها، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21]؛ يعني: أرضَ الشّام[1].

(1) مؤسَّسة النشر الإسلامي، معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتابَي العسكري والجزائري، ص: 124.

البعث والإرسال:

الإرسالُ لا يكون إلّا برسالةٍ وما يَجري مَجراها[1]، فقولُك: (أرسلتُ زيدًا إلى عمرٍو) يقتضي أنَّك حمَّلتَهُ رسالةً إليه أو خبرًا أو ما أشبه ذلك، وإنَّما يُستعمَلُ الإرسالُ حيث يُستعمَلُ الرَّسولُ[2]، والبَعثُ: الإثارةُ، يقالُ: بَعَثَ النّاقةَ فانْبَعَثَتْ؛ أي: أثارَها فثارَتْ، ونهَضَتْ، ومنه يومُ البَعثِ، يومَ يَبعَثُنا اللّهُ تعالى من القبور[3].

الإرسالُ يكونُ برسالةٍ، والبعثُ: الإثارةُ بدون قيدِ الرِّسالة

التِّلاوة والقراءة والتَّرتيل:

التِّلاوةُ تَختصُّ باتِّباع كتب الله المنزَّلة، وهو أخصُّ من القراءة؛ فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، لا يقال: تلوتُ رُقْعَتَك، وإنَّما يقال في القرآنِ في شيءٍ إذا قرأتَهُ وجَبَ عليك اتِّباعُهُ. و"تَلا آياتٍ من القرآن الكريم: رتَّلَها في إنشادٍ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]، والمرادُ: التِّلاوةُ مع إعطائها حقَّها من التَّأمُّلِ والعملِ بمقتضاها"[4].

التِّلاوةُ تختصُّ بالكتبِ المنزَّلة، وفيها إنشادٌ، والتَّرتيلُ التَّمهُّلُ في القراءة، والقراءةُ أعمُّ منهما

والتَّرتيلُ من الفعل (رَتَّلَ)، ورَتَّلَ الكلامَ: أحْسَنَ تأليفَهُ وأبانَهُ وتمهَّلَ فيه، بأنْ يُبينَ جميعَ الحروف، ويوفّيَها حقَّها من الإشباعِ بلا عجلةٍ؛ فتتميَّزَ أصواتُ كلِّ كلمة، وتتميَّزَ كلُّ كلمةٍ عن الأخرى، وفي وصفِ هيئة كلام رسول الله ﷺ: أنَّه "كان يُحَدِّثُ حديثًا لو عدَّهُ العادُّ لأحصاهُ"[5]، فالتَّرتيلُ هو التَّريُّثُ والتَّمهُّلُ في القراءة.

الإيتاء والإعطاء:

ذكَرَ الإمامُ الزَّركشيُّ في كتابه البرهان عن الإمام الجوينيِّ فائدةً عظيمةً في الفرق بينَ الإيتاء والإعطاء، قال رحمه الله: "قال

الإيتاءُ أقوى من الإعطاء، لذلك استُعمِلَ في القرآن في الأشياءِ العظيمة

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 103.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 103.
(3) المُطَرِّزيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (بعث).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (تلو).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رتل).

الجوينيُّ: لا يكادُ اللُّغويّون يُفرِّقون بينَ الإعطاء والإيتاء، وظهَرَ لي بينهما فرقٌ انبَنى عليه بلاغةٌ في كتاب الله، وهو: أنَّ الإيتاءَ أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يقال في الإيتاء: آتاني فأتيتُ، وإنَّما يقال: آتاني فأخذتُ، والفعلُ الَّذي له مطاوعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعوله من الَّذي لا مطاوعَ له؛ لأنَّك تقول: قطعتُهُ فانقطع، فيدلُّ على أنَّ فعلَ الفاعل كان موقوفًا على قبول المحلِّ، ولولا قبولُهُ لَما ثبَتَ المفعولُ، ولهذا يصحُّ أن نقولَ: قطعتُهُ فما انقطَعَ؛ لعدم قبولِ المحلِّ فعلَ القطع، ولا يصحُّ أن نقولَ ذلك فيما لا مطاوعَ له، فلا يقال: ضربتُهُ فما انْضَرَبَ؛ لأنَّ هذه الأفعالَ إذا صدرتْ من الفاعل ثبَتَ لها المفعولُ، فالإيتاءُ إذًا أقوى من الإعطاء.

وقد تفكَّرتُ في مواضعَ من القرآن فوجدتُ ذلك مُراعًى، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلكَ شيءٌ عظيم لا يُعطيه إلّا مَن له قوَّةٌ، وقال سبحانه: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]؛ لأنَّ الحكمةَ إذا ثبتَتْ في المحلِّ دامَتْ، وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]؛ لعِظَم القرآنِ وشأنِه. أمّا الإعطاءُ فقال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ وأمَّتَهُ سيتركون الحوضَ ويرتحلون إلى منازلِ العزِّ والأنهارِ الجارية في الجِنان، وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [التَّوبة: 29]؛ لأنَّها موقوفةٌ على قبولٍ منّا. فانظُرْ إلى هذه اللَّطيفةِ الموْقِفَةِ على سِرٍّ من أسرارِ الكتاب"[1].

وبذلك يتَّضِحُ لنا سرُّ استعمال النَّظم القرآنيِّ لفعل الإيتاءِ في هذا الموضع: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن 4/ 85، 87، بتصرف.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"